الدعوة

في

الإسلام عقيدة ومنهج

تأليف

الدكتور السيد رزق الطويل



الدعوة في القرآن الكريم

﴿ ادْعُ إلىٰ سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، وجادِلْهُم بالتي هي أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هو اعلمُ بمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِه ، وهو أَعلَمُ بالمهتدين ﴾ .

(النحل/١٢٥)

﴿ قل : هذه سبيلي أَدْعُو إلىٰ اللهِ علىٰ بصيرةٍ أَنَا ومَنْ اتبعني وسبحانَ اللهِ ، وما أَنَا من المشركين ﴾ .

(يوسف/١٠٨)

﴿ ولْتَكُنْ منكم أمةٌ يَدْعُونَ إلىٰ الخيرِ ، ويَأْمُرونَ بالمعروفِ وينْهَوْنَ عَنِ المنكرِ ، وأُولئِكَ هم المفلحون ﴾ .

(آل عمران/١٠٤)

﴿ ومن أَحْسَنُ قولاً ممن دَعَا إلىٰ اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً وقال : إنني من المسلمين ﴾ .

(فصلت/٣٣)

مقـــدمة

الدعوة الاسلامية .. وتحديات العصر

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام علىٰ أنبيائه ورسله منارات الهدى ومعالم الهداية والرشاد وقادة المسيرة البشرية بحكمة وبصيرة في درب الحياة الحافل بالمحن والابتلاء ، كما أراد لها رب العالمين **﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾** .

واصلي واسلم على خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام خير من دعا إلىٰ الله وقدم القدوة الحسنة للبشرية في مقاله وفعاله ، فترددت اصداء دعوته في المشارق والمغارب حتي إن الذين حرموا من الإيمان به رسولا عرفوه داعية عظيما ، وشهدوا له بالعقل والخلق ، والعلم والحكمة ، والبصيرة الهادية والنظرة النافذة ، والبديهة الحاضرة والتقدير الحسن لوقائع المستقبل ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين حذوا حذوه ، وساروا مسيرته ، واستنوا بسنته ، وواصلوا السير على درب الدعوة من بعده حتي أسمعوها لبني الانسان في المشارق والمغارب من المحيط الاطلسي حتي حدود الصين ، ومن مرتفعات الأناضول شمالا حتي هضبة البحيرات جنوبا ، ورضي الله

عن التابعين لهم باحسان إلىٰ يوم الدين .

وبعـد :

فقضية الدعوة هي أخطر قضايا العصر .

وهي في الاسلام جوهر وكيان ، فهي ليست مجرد توجيه من توجيهاته الراشدة ، أو أمرا من أوامره الحكيمة ، والاسلام دين حركة ، والمسلم انسان متحرك فلا يكفي ان يعرف الخير ، ويقصره على نفسه بل لابد أن ينتقل منه إلى غيره ، وهكذا لابد أن تنساب دعوة الخير في ثنايا المجتمع المسلم كما ينساب الماء برفق على الارض المستوية ، لا كما ينطلق السيل مدمرا من القمم العالية ، ولا كما يحتبس الماء في بعض الوديان تضن به عما جاورها من السهول والبطاح .

فالأرض التي تمسك الماء فينتفع به الناس فيشربون ، ويسقون دوابهم ويزرعون دون ان تنتفع به في نفسها . ليست هذه هي الصورة المثلى في الاسلام .

فمتي وجد إسلام فلابد ان تكون هناك دعوة للخير ، ولابد أن تكون هناك مواجهة للشر ، وحد من خطورته ، ووقوف دون أضراره .

وهذا هو السر في بقاء الدعوة الاسلامية ، مؤثرة قوية حتي في العهود التي يشتد فيها الظلام ، وتكتنف امة الاسلام البلايا والخطوب تجد مسيرة الهداية قائمة على يد تاجر مسلم في ادغال افريقيا واحراشها أو في اواسط آسيا أو اقصاها ، لأن هذا هو شأن الاسلام كالنور تتحرك اشعاعاته في خطوط مستقيمة مبددة الظلام

من حولها حتي اذا تصدى لأشعته مانع ، أو وقف دونه عائق انعكس الضوء أو انكسر فأضاء على أي نحو من الأنحاء .. فالاضاءة فيه أمر حتمي لأنه نور الله .

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ (الصف : ٨)

وقد عرف هذه الحقيقة توماس ارنولد فقال : الاسلام دين دعوة .

حركة اسلامية معاصرة :

ويشهد العالم الاسلامي بلا ريب تحركا حثيثا نحو الاسلام ، واصبحت قضية المطالبة بالعودة إلى الاسلام ، او إعادة الاسلام إلى مكان القيادة والتوجيه مطلبا جماهيريا وتقوم أعباء هذه الحركة على كواهل الشباب .

وأخذت أجهزة الاعلام العالمية تترصد هذه الحركة ، وتتابع تطوراتها وبخاصة الذين يراقبون عن كثب يقظة المارد الاسلامي الذي يملك تراثا من القيم والمبادئ والسلوك والتشريعات ما هو كفيل بان يفضح زيف مدنية الغرب ، وضلال حضارتها ، وتناقضاتها المهينة حتي في قضية الانسان وحقوقه في هذه الارض .

وعندما قامت ثورة إيران تصوروها بداية ليقظة العملاق ، وفزعت اوروبا كلها منها ، ثم استبان لهم أنها مجرد حركة عادية لتغيير محتوم وليست هي اليقظة التي يخشونها ، ويحسبون حسابها .

وهذه الحركة ــ ولا زالت ــ في حاجة إلى توجيه وترشيد .

وذلك لتحقيق اكبر قدر من الايجابيات الكفيلة بتحقيق الغاية

النبيلة والاقتراب من الأمل العذب ، واستعادة المجد الغارب لهذه الأمة الذي أقامه اسلافها الصالحون على اساس من الدين الحق ، والعقيدة الراسخة والتوحيد الصادق ، والشريعة العادلة .

ومن ناحية اخرى التنائي عن السلبيات المعوقة .

* وكانت لهذه الحركة سلبيات ولا ريب .

* من هذه السلبيات بناء الدعوة على الصراع مع السلطات وتحدي الحكام .

* الاسراف في العبارات العاطفية وأساليب الاثارة .

* لم يكن لتصحيح العقيدة دور بارز في هذه الحركات .

* قيام فرق متناحرة ، متنافرة الاتجاهات داخل هذه الحركة .

* لم يكن هناك التزام سليم بالمنهج الاسلامي في الدعوة .

هذا على الصعيد الداخلي في مجتمعات المسلمين .

واما في الصعيد الخارجي .

فليست هناك خطة علمية محكمة للدعوة في الخارج .

ولم تكن هناك خطة شاملة للامة الاسلامية لغزو الفكر الانساني المعاصر مع أن الفرصة متاحة ، والوسائل مهيأة ، والاسباب مواتية .

والعالم الانساني غير المسلم برغم ما وصل إليه من مدنية وحضارة حققت في التقدم العلمي ما يشبه الأساطير ، لكنه يعيش حياة مليئة بالتمزق ، مفعمة بالخوف والقلق ، تسودها الأمراض النفسية والعصبية ، لكنه فشل تماما في بناء الجانب الانساني بقدر ما نجح في بناء المادة ، وما وصل اليه من التقدم الصناعي .

وعندما يعرض عليه الاسلام بمبادئه الصافية النقية ـ وهو في محنته تلك ـ لابد أن يهرع إليه ويشتد اقباله على الاسلام اذا وجد مبادئه قد تجسدت في سلوك المسلمين .

ومن هنا تكمن خطورة القدوة . وتبدو أهميتها في منهج الدعوة .

ومن هنا كان من الضروري ان اكتب عن الدعوة بمنهج متميز وموضوعية كاملة . ووراء هذه الكتابة خبرة ثلاثين عاما في ميدان الدعوة .

ولأجل هذا جمعت فيه بين التحقيق العلمي ، والتوثيق من المصادر الصحيحة ، وبين تجارب العمل الميداني ، فهذا الكتاب بحث علمي ميداني .

ونقلت من أقوال المستشرقين الذين اهتموا بالحركة الاسلامية وأرخوا للدعوة منذ عصورها الاولى . مع تيقظ لما لهم من غمز ولمز ، كاشفا عنه النقاب ببراهين قاطعة وملاحقة نقدية دائبة ، مثنيا على أحكامهم المنصفة وفيهم قلة تجردت إلى حد كبير من أهوائها .

وهذا الكتاب سيراه القارئ باذن الله في فصول أربعة تسبقها هذه المقدمة وتعقبها الخاتمة .

في الفصل الاول :

تحدثنا عن قيمة الدعوة ، وأنها في الاسلام عقيدة .

كما أشرنا إلى خصائص المنهج الاسلامي وأثرها في الدعوة .

وفي الفصل الثاني :

تناولت المنهج الاسلامي في الدعوة ، والأسس التي يقوم عليها وفصلت ذلك تفصيلا دقيقا ، مستعينا بدراسة عميقة لكتاب رب

العالمين وما فيه من مواعظ بالغة ، وحكم سديدة وبخبرة واسعة في مجال الدعوة ، في هذا الفصل ستظهر بوضوح تجارب العمل الميداني .

وفي الفصل الثالث :

تحدثت عن الدعوة إلى الاسلام عبر مراحل التاريخ ، على أساس ان الاسلام دعوة الرسل جميعا ، وأن الدين عند الله هو الاسلام ، وليس لله دين سواه ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

وفي الفصل الرابع :

كان البحث فيه أقرب إلى الجانب التطبيقي ، إذ عرضت فيه حركة الدعوة في الرسالة الخاتمة بادئا بها في عصر رسول الله ﷺ . وعصر الراشدين من خلفائه لأعطي من خلالها تجسيدا للدعوة في صورتها المثلى ، وقد استوفت عناصرها الاسلامية .

ثم تابعت الحديث عن الدعوة في الدولتين الأموية والعباسية وما للظروف المحيطة من تأثير في الدعوة سلبا وايجابا .

وتحدثت بخاصة عن جهود الافراد ، وما اثمرته في ميدان الدعوة وضربت أمثلة لذلك بحركة انتشار الاسلام في افريقيا وآسيا .

وختمت البحث بالنتيجة التي اقترحتها في المقدمة .

وهي أن القدوة ضرورة لنجاح الدعوة في المجالين الداخلي والخارجي فعمل اخلاقي وديني فريد يحرك نحوه الهمم أكثر مما تفعله عشرات الخطب البليغة . ومجتمع اسلامي ملتزم يشد الملايين من

غير المسلمين إليه اكثر مما تفعله آلاف النشرات والكتب ، والساعات الكثيرة تبثها وسائل الاعلام على اختلاف انواعها .

وماذا بعد ؟

هذا العصر الذي نشطت فيه حركة في انحاء عدة من بلاد المسلمين وانشئت للدعوة كليات في جامعاتهم مما يضع في تصورنا أن الدعوة ـ الآن ـ علم وخطة ومنهج ولابد من تضافر جهود العاملين في حقل الدعوة لوضع تصور علمي لها ، وعمل خريطة للعالم تقسمه إلى مناطق ، لكل منطقة يوضع لها الاسلوب الملائم لدعوتها إلى الاسلام . وعلى ضوء هذا توضع المناهج في كليات الدعوة ، بحيث يكون الداعية من اوسع الناس ثقافة ، واكثرهم علما بظروف العصر ومشكلاته ، وصراعاته ، وموقفها من الاسلام ، وموقف الاسلام منها مع وجود جهاز متابعة متخصص يرصد كل ما يقال عن الاسلام في الشرق والغرب إن خيرا وإن شرا .

ونجاح هذا كله رهن بان يكون المسلمون في اوطانهم صورة مشرقة ومشرفة للاسلام .

هذا هو الكتاب ، وهذه دوافع كتابته والخواطر التي ألمت بذهني بعد الفراغ منه ارجو ان يكون خالصا لوجه الله وحده ، فما قصدت فيه الا الحق ، وما أردت الا الخير . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ﴾ .

الفصل الاول

الدعوة الى الاسلام عقيدة

(١) منزلة الدعوة في الاسلام
(٢) خصائص المنهج الاسلامي وأثرها في عملية الدعوة

الدعوة الى الاسلام عقيدة

الاسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله للبشر. والايمان به ، والاستهداء في الحياة بمناهجه الحكيمة حق على كل مكلف.

ولا تقف مسئولية المكلفين أولى الالباب عند الايمان والاستهداء بل لابد لهم ان يتجاوزوا ذلك الى الدعوة اليه ، وحث الناس عليه وكشف حجب الغفلة والضلالة عن قلوب المعرضين عنه.

ذلك لأن الاسلام الحق لابد أن يعم الدنيا ، ويملأ الآفاق.

والعقيدة الاسلامية القائمة على التوحيد الخالص ، والعبودية الصادقة لابد ان تكون كلها لله. والسلوك الاسلامي لابد ان يحفظ وان يصان. ومجتمع المسلمين لابد ان يبقي خير امة اخرجت للناس.

وهذه الاهداف الكبيرة في الاسلام لا تتحقق الا اذا كانت الدعوة الى الاسلام عقيدة. واصبح التناصح شعار كل مسلم. والامر بالمعروف والنهي عن المنكر منهج كل مؤمن. وتخلصنا من داء السلبية ازاء التجاوز والتعدي الذي يتعرض له الاسلام وشريعته واستبعدنا مسلك التنصل والهروب من كل تبعة أو مسئولية.

ومن اجل هذا كانت الدعوة في الاسلام عصبه وقوامه ، وحياته وحيويته ، والمحافظة لحركته ومسيرته. وحظيت من كتاب

الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بأكبر قدر واوفى حظ من العناية والاهتمام .

ويأتي من عند الله هذا الامر القاطع ، والتكليف الجازم بضرورة وجود الدعاة الى الخير ، الحراس لحدود الله وشرعه في مجتمع المسلمين فيقول تعالى : ﴿ **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران : ١٠٤)

وبالتناصح والتحذير والتوجيه نستطيع ان نقي المجتمع المسلم من اخطار الفرقة والانقسام ، ولذا كانت الآية التالية : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ . (آل عمران : ١٠٥)

وباسلوب فيه تخصيص بالغ يدعو ربنا تبارك وتعالى الى النفرة والخروج للتعلم والتفقه استعدادا للدعوة فيقول تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** ﴾ . (التوبة : ١٢٢)

وفي نصيحة لقمان لابنه ـ التي سجلها القرآن الكريم ـ وفيها اصول الخير ، وعناصر البر نرى من بينها : ﴿ **يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور** ﴾ . (لقمان : ١٧)

واول مسئولية يطالب بها المسلم اذا مكن الله له في الأرض أن يدعو الى الله فيقول تعالى : ﴿ **الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة**

الأمور﴾ . (الحج : ٤١)

فمسئولية الدعوة ـ كما تنص هذه الآية ـ مثل اقامة الصلاة وايتاء الزكاة .

ومجتمع المسلمين مجتمع خير وسمو . وكمال واستقامة طالما ادرك افراده ابعاد هذه المهمة ، مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله﴾** . (آل عمران : ١١٠)

وسر هذا الاهتمام القرآني الكبير بقضية الدعوة أنها في حقيقتها وفي جوهرها ، قضية حراسة لحدود الاسلام ومبادئه لا تقل عن المرابطة على الحدود لرد الاعداء والمغيرين .

ولهذا قال النبي ﷺ : « **افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** »[1] . وهي قضية قيام واع من العلماء على أوامر الدين واموره .

ولقد اثني القرآن الكريم على طائفة من اهل الكتاب كانت قائمة على دين الله ، قوامة عليه ، فيقول في وصفها : ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين﴾** . (آل عمران : ١١٣ ، ١١٤)

وقد صور النبي ﷺ هذه الحراسة التي تقوم بها الدعوة الواعية في مثل من الامثال النبوية الحكيمة .

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه واحمد .

يقول ﷺ : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فاصاب بعضهم اعلاها ، واصاب بعضهم اسفلها ، فقال الذين في اسفلها : لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا نأخذ منه الماء دون ان نؤذي من فوقنا ، فان تركوهم وما ارادوا هلكوا وهلكوا جميعا ، وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا** »[1]

فالمجتمع الاسلامي هو هذه السفينة . وأي اضرار به صادر من بعض افراده لا يصح السكوت عليه بحجة الحرية الشخصية ومن هنا فمن حق أي فرد ان يتصدى وان ينصح وان ينبه لهذا الخطر الذي يراد بقصد أو بغير قصد حماية لنفسه ، ولاخوانه الذين معه . وفي مقدمتهم هؤلاء الذين حدث منهم الاضرار .

فاليقظة اذن من المجتمع المسلم ضرورية للحيلولة دون اخطار قد تحدث بحسن نية من فاعليها .

والمتعدي لحدود الله عنصر تدمير في المجتمع ، وان خيل اليه انه ما تجاوز حدود الممارسة الشخصية . وذلك لأن الرذيلة تُعْدِي والمنكر جرثومة فساد ، سريعة الانتشار .

ولهذا كان دفع المنكر واجبا يفرضه الايمان .. وكانت المصارحة بالخطأ والتقصير أسلوبا إسلاميا . كما أن المداهنة ، والتزييف وطمس الحقائق منهج نفاق .

يقول الله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون**

---

(١) رواه البخاري وغيره .

الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ . (التوبة : ٧١)

كما قال تعالى : ﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف . يقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون**﴾ (التوبة : ٦٧)

وقانون المسئولية في الاسلام بما فيه من إعزاز وتكريم للفرد المسلم يؤدي دورا بارزا في حماية المجتمع وصيانة الحدود ورعاية الحرمات ، إذ أن كل فرد مهما قل شأنه أو مكانه أو مكانته في المجتمع له رعية ، وعليه نحوها مسئولية .

ويفصح رسول الله ﷺ عن جوانب هذه المسئولية فيقول : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالرجل راع في بيته ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته** »[١] .

إن تعميم المسئولية بهذه الصورة عمل فريد ومنهج حكيم ، تميز به تشريع رب العالمين ، من شأنه أن يخلق مجتمعا من الرجال ، كل منهم يدرك مسئوليته مهما قل دوره .

وقد أكد القرآن الكريم مبدأ المسئولية العامة الذي يعزز قاعدة التناصح .

يقول تعالى : ﴿**بل الانسان على نفسه بصيرة**﴾ القيامة : ١٤

---

(١) رواه البخاري .

ويقول تعالى : ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ المدثر : ٣٨

ويقول تعالى : ﴿**ألا تزر وازرة وزْرَ أخرى**﴾ النجم : ٣٨

وعموم المسئولية الذي اشرنا اليه يؤكده هذا الحديث الذي يلزم كل طبقات الأمة بالنصيحة بعد نصح الله ورسوله . يقول ﷺ **الدين النصيحة** ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : **لله ورسوله . وائمة المسلمين وعامتهم**[1] .

ومن القضايا التي تتردد على السنة المسلمين الواعين وقد تلقوها من نبع النبوة العذب ، ومنهلها الصافي ، وبيانها الحافل بجوامع الكلم ، أو من أقوال الصحابة الذين نشأوا في مدرستها :

* المؤمن مرآة اخيه[2] .
* رحم الله امرأ اهدى الى عيوبي[3] .
* المؤمنون بعضهم لبعض نصحة . والمنافقون بعضهم لبعض غششة .
* الساكت عن الحق شيطان اخرس .
* لعن الله قوما يضيع الحق بينهم .

ولان طريق النصيحة حافل بالمشاق ، مليئ بالمصاعب ، ولا سيما إذا وجد الناصح أنه سيواجه بنصيحته ذوي الجاه والسلطان أو أصحاب البأس والقوة ، أو المال والثراء نجد رسول الله ﷺ يذكر الناصح بما يفرضه عليه إيمانه من يقين ، وثقة في ربه الذي

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب الايمان .

(٢) اخرجه ابوداود في كتاب الادب .

(٣) أثر ينسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

في سبيله يأمر وينهي وينصح . ذلك لأن ما يخيف الانسان أمران : ذهاب الحياة وضياع المال . وهذان الامران مكفولان عند رب العالمين . يقول ﷺ : « **ألا لا يمنعن احدكم رهبة الناس ان يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم** »[1] .

كما وجدنا الأمر بالصبر اقترن بالأمر بالنصيحة في موعظة لقمان التي أشرنا اليها ، إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ **وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك** ﴾ .

وامام عموم المسئولية وشمولها ، وقيام التناصح منهجا للمجتمع المسلم كان لابد لكل فرد أن يعرف دوره الذي تسمح به إمكاناته ، وظروفه ومقدراته .

ويتولى هذا الامر رسول الله ﷺ فيقول : « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان** »[2] .

فالتغيير باليد مسئولية الحكام واصحاب السلطان ، ومن يملك التغيير دون اضرار ، والتغيير باللسان مسئولية العلماء ، وصانعي الكلمة ، والتغيير بالقلب يملكه كل إنسان : بأن يقول لا بملئ فيه في وجه المنكر ، أو أن يزول عنه إن لم يستطع أن يُزيله .

وإزاء هذه المسئولية العامة في التصدي لكل انحراف عن شريعة الله ، وتقويم أي اعوجاج في مسيرة المسلمين عن منهاج

---

(١) رواه الامام احمد في سنده .
(٢) اخرّه البخاري في كتاب الايمان .

خالقهم ، وجدنا ـ كما عرفنا القرآن ـ أن العقوبة شاملة . لا تقتصر على مرتكب المنكر بل تتجاوزه إلى الساكت عنه .

يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب** ﴾ (الانفال : ٢٥)

وفي الحديث الشريف : « **اذا ظهر فيكم المنكر ، فلم تغيروه يوشك ان يعم الله الكل بعذاب** »[١] .

وفي ضوء هذا يتضح لنا الخطورة البالغة للسلبية في مواجهة الاخطار والانحراف عن طريق الحق .

ويقدم لنا النبي عليه الصلاة والسلام خبرا من تاريخ بني اسرائيل ، هو هذه القرية التي حل عليها العذاب ، وفيها رجل صالح خلا الى محرابه يعبد ربه ، وقد اعتزل تماما هؤلاء الباغين من اهل قريته . وجاءت ملائكة العذاب ، لتنفذ حكم الله فيها ، وتوقفوا أمام هذا الرجل الصالح وقالوا : يارب عبدك فلان ماذا نعمل له ؟ وكأنهم يخشون ان يصيبه طرف من العذاب الذي سيدمر القرية ، ويقول ربنا لملائكته ، **ابدأوا به ، لما تمعر وجهه لاجلي مرة واحدة**[٢] ..

فهو اذن لم يغضب لله ، ولم يتغير وجهه سخطا على المنتهكين

---

(١) رواه الصديق في كلمة له على المنبر ، تصحيحا لفهم الناس للآية الكريمة ﴿ **لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ راجع تفسير ابي السعود جـ ٢ ص ٦٥ ويؤيده الحديث الذي رواه البخاري مع اختلاف في اللفظ : « ان الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده »

(٢) ذكره ابن القيم في الجواب الكافي ، ورواه ابن ابي الدنيا .

لحرماته ، فهو إذن غير صادق في عبوديته لله ، وفي حبه له ، لان الحب الصادق تكشف عنه الغيرة على من تحب .

فمن يحب الله فليغر على دينه وشريعته ، وليتَصَدَّ بقدر ما يملك من جهد ومن حيلة لكل تعد على حدوده .

وهذه هي القضية التي تكشف خطورة النصيحة ، وقيمتها ، وانها عقيدة ويزداد هذا الامر وضوحا اذا تأملنا هذا القصص القرآني ، وهو الحق : قرية من بني اسرائيل كانت حاضرة البحر . وحرفة اهلها الصيد نهاهم الله عن الصيد يوم السبت . وابتلاهم الله امتحانا لايمانهم ــ كما هي سنته في المؤمنين من عباده ــ فرأوا الحيتان تكاد تتواثب على الشاطئ يوم السبت . وفي الايام الاخرى لايجدونها الا بشق الانفس . وهنا قال بعضهم تحت اغراء النفع القريب الذي خارت امامه عزائمهم ماذا لو صَدْنا يوم السبت وحرَّمنا يوما آخر مكانه ؟ أو نحتجز الحيتان يوم السبت ولا نتتشلها الا في الايام التالية .

هو إذن لون من التحايل الذي عرف به بنو اسرائيل عندما يسخرون دين الله وكتابه لخدمة مصالحهم ، أو هو شبيه بهذا النسيء الذي وقع فيه العرب في جاهليتهم بالنسبة للاشهر الحرم . واقدموا على ما احتالوا لاجله . فقال آخرون من اهل القرية : لا ينبغي ان نسكت ، ولابد ان نتصدى ونعظ هؤلاء الذين سيهلكون بأخطائهم . فجاء طرف ثالث من أهل القرية يلومون الناصحين . ويقولون : ما شأنكم بهم دعوهم يتورطون في خطيئتهم وليهلكهم ربهم . وكل انسان رهين بما كسب . فرد

الناصحون عليهم يكشفون لهم سوء فهمهم ، وان المسئولية الشخصية للانسان عن عمله ، لا تمنع الآخرين من التصدي له بالنصح ، وفاء بحق المجتمع ، ووقاية له حتي لا يشيع فيه الانحراف .

والمجتمع المسلم متكامل ، متكافل شبهه الرسول ﷺ في حديثه هذا التشبيه المحكم الدقيق . اذ قال : « **مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** »[1] . وقوله ﷺ : **المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضا**[2] .

ان التناصح اروع صورة من صور التكافل في المجتمع المسلم . وهذه هي الآيات التي تتحدث عن القرية الاسرائيلية . يقول تعالى :

﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون في السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . واذ قالت امة منهم : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ .

ثم ماذا كانت النتيجة ؟ انتهى الامر بنجاة الناصحين وحدهم الذين عرفوا حق المجتمع عليهم ، وهلك الباقون سواء منهم من وقعوا في الخطأ أم من سكتوا عليه .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه الستة ما عدا ابا داود .

يقول تعالى بعد الآيتين السابقتين : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء ، واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ (الاعراف : ١٦٣/١٦٥) ويبدو أن اسلوب السلبية والتخفف من مئونة النصيحة سنة يهودية دفعوا إليها تحت أوهام الاماني بأنهم الشعب المصطفىٰ والامة المختارة وأورثهم هذا فكرا عنصريا جعلهم يضنون بالدعوة الى الله ، ويقعدون عن مقاومة المنكر في داخل مجتمعهم وخارجه . يقول تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسىٰ بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ (المائدة : ٧٨/٧٩)

ومما يشير إلى ذلك ان حديث القرآن الكريم عن خير امة اخرجت للناس لما تملكه من إيمان وشعور بالمسئولية نحوه ، يدفعهم الى التناصح قال بعد ذلك : ﴿ **ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون** ﴾ .

بقيت آية اساء الناس فهمها تماما ، وظنوها تؤيد سلبيتهم ، وتعفيهم من أي مسئولية إزاء المخطئين المنحرفين وهي قوله تعالى : ﴿ **يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** ﴾ (المائدة : ١٠٥) . ويرددها بعض الناس تعبيرا عن السلبية واللا مبالاة . واحيانا يذكرون معها بعض العبارات التي تشيع هذا الفهم الضال مثل :

وضع العباد فيما أراد .

كل واحد معلق من عرقوبه .

مع ان الآية بريئة براءة تامة مما فهم القوم .. انها تقرر مبدأين : اولها : المسئولية الشخصية . ثانيهما : الضالون لا يملكون الاضرار بالمهتدين ، كما قال تعالى : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ (آل عمران : ١١١)

وتحت وصف الهداية القيام بواجب النصيحة والا فلا هداية لمن تولى بركنه ، وضن بنصحه ، ولم يغضب لربه . وقد أثر عن ابي بكر قوله تعليقا على هذه الآية ، واساءة الناس فهمها وان المذهب الأقوم في فهمها : اذا امرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر فلا يضركم من ضل اذا اهتديتم[1] .

وعلى هذا النحو ـ اذا صح استمساكنا بمنهج التناصح ، واصبح فينا خلقا وعقيدة ـ ينشأ رأي عام مسلم واع ، يحرس حدود الله ، وحرمات المجتمع في يقظة واعية ، تخيف المخطئ . وترهب المنحرف ، كما تؤمن القائم بالعدل ، والمستقيم على الحق .

وفي ظلال هذا الرأي العام الواعي نام عمر هانئا تحت الشجرة . لانه وجد المجتمع الواعي الذي يصدقه القول ، ويحاسبه إذا ارتاب ويقول : من أين لك هذا يا عمر؟ كيف

---

(١) راجع تفسير ابي السعود (٢ : ٦٥) وقد قال ابو السعود في تفسيره قبل ان يورد عبارة الصديق : ولا يتوهمن احد ان في الآية رخصة في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فان من جملة الاهتداء ان ينكر .

وهذا الحديث الذي رواه الحاكم يبين هذا الامر ، كما يوضح المدى الذي يمكن ان تتوقف عنده النصيحة اذ يقول ﷺ : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نفسك .

فعلت هذا يا عمر ؟ كما كان يقول له القائل منهم : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

وان أروع صورة لهذا المجتمع برزت في عهد رسول الله ﷺ بدا فيها المجتمع المسلم قوة عظيمة الشأن ، ذات بأس وسلطان تؤدب وتقوم وذلك عندما تخلف النفر الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن امية ، ومرارة بن الربيع عن تبوك .

هذه الغزوة التي احاطت بها ظروف صعبة محصت الكثيرين ، وابتلت إيمانهم ، وكشفت زيف المنافقين وبهتانهم . وتخلفوا بلا عذر ملح أو ضرورة ملجئة . وعندما سأل النبي ﷺ المتخلفين ، أو الخالفين أو الخوالف كذب المنافقون ، وانتحلوا اعذارا تقنع رسول الله ﷺ وقبلها منهم . لكن هؤلاء الثلاثة لم يشاءوا أن يكذبوا وصدقوا ، وقالوا : والله يارسول الله ما كنا في يوم من الايام اقوى منا يوم تخلفنا عنك .. وما كنا في يوم اغني منا يوم تخلفنا عنك .

اذن قعدوا ايثارا للراحة والدعة ، وظنا منهم ان تخلفهم لن يضر بالجيش المسلم . وطلب النبي ﷺ مقاطعتهم . وكان درسا بالغ المرارة والالم . يُفْشُون السلام فلا يرد عليهم احد سلاما ، ويمر بهم اخوانهم فلا يلقون عليهم سلاما . لا يبيعونهم . ولا يبتاعون منهم . حتي أزواجهم وأبناؤهم وذوو قرابتهم . وزوجة كعب تتحرج من مجرد إعداد الطعام لزوجها الشيخ وتستأذن في ذلك رسول الله ﷺ ، فيأذن لها بذلك وينهاها عن التحدث إليه والسمر معه .

ويشيع هذا الامر ، ويلوح لهم اعداء الاسلام بالوعود الخلابة وهم في قمة الضيق . اذ ضاقت بهم الارض بما رحبت ـ طالبين منهم التخلي عن هذا المجتمع ، واللياذ إلى كنف الروم .

ويعز عليهم هذا الامر ، ويأبي عليهم إيمانهم الصادق . ويقينهم الراسخ الذي لم تنجح هذه المحنة في النيل منه[1] .

ثم يعفو عنهم ربهم لصدقهم مع الله ، ومع رسوله ﷺ وينزل فيهم قوله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتي اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ . (التوبة : ١١٨/١١٩)

وهكذا يستبين لنا على ضوء هذه الحادثة التي اشار اليها القرآن الكريم ان الرأي العام الواعي يحرس الحدود ، ويصون الحرمات . ويقوم على الدين الحق ، يردع المنحرف ، ويرد الباغي وان النبي عليه الصلاة والسلام كشف عن هذا الاسلوب المؤثر . ليعلم كل منحرف عن منهج الاسلام انه غريب عن مجتمع المسلمين .

ويدا هذا الاتجاه الحكيم في كثير من تعبيرات النبي عليه الصلاة والسلام ، اذا كان في مجال التحذير عن أي خطيئة أو اثم كان يقول : ليس منا من فعل كذا .

---

(١) وردت هذه القصة في صحيح البخاري .

وبقي علينا بعد هذه الشواهد المتعددة التي اوردنا ان نبين : كيف كانت الدعوة إلى الاسلام عقيدة . ذلك لان التحرك للدعوة لا يمكن أن يتم على اكمل وجه إلا بعد يقين راسخ ، وثقة بالغة فيمن تدعو اليه ، وفي منهجه الحق الذي آمنت به واسلمت له .

وايمان المسلم له مراحل تبدأ بالعلم . وتتأكد بالصدق ، وتصح بالاخلاص ، وتنتهي بالثقة . وفي غياب هذه المعاني تكون الدعوة فاترة جامدة ، لا تحرك شعورا . ولا توقظ غافلا ، ولا تقنع ضالا .

ولكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عقيدة كان الامر به شاملا شمول العقيدة فكل فرد من أفراد المسلمين مطالب به ـ كما بينا ـ بقدر طاقته وجهده كما هو مطالب بصدق العقيدة . والعقيدة لها جانبان : جانب عقلي وجانب عملي .

اما الجانب العقلي فيتمثل في اليقين الراسخ بما علمنا إياه الاسلام من تعريف بالله ورسله وكتبه وملائكته ، واليوم الآخر وما فيه ، وقضاء الله وقدره في خلقه .

وهي الخطوط الرئيسية التي تحدد للمسلم أبعاد فكره ، ليصح تصوره لنفسه ، وللحياة التي يعيش فيها وللاحياء الذين يعيشون معه ، كما تستبين له مهمته التي من اجلها خلقه ربه وانها هي العبادة الخالصة لوجهه والانصياع لمنهجه . والاعراض التام عن كل منهج سواه .

واما الجانب العملي للعقيدة فيتمثل في الحركة الذاتية لتبصير الناس بها وارشادهم عليها . وهذا الجانب لا يقل خطرا عن

الجانب الاول بل هو يرتبط به تماما ، ارتباط النتيجة بالمقدمة ، والبرهان بالدعوى . والحجة التي تدعم القضية ، وتعلن صدقها .

واذا كانت الرسالة الخاتمة وضعت الدعوة في مكانها الصحيح واعادت لها سلطانها ، وكشفت عن قيمتها فإنها قدمت مع ذلك المنهج السديد ، والأسلوب الحكيم الذي يجعلها مؤثرة . وثمارها دانية ونتيجتها في السمو بالمجتمع والارتقاء به آتية لا ريب فيها .

وهذه قضية نعالجها في الفصول التالية .

خصائص المنهج الاسلامي
واثرها في عملية الدعوة

للمنهج الاسلامي عدة خصائص تجعل طريقه الى قلوب البشر سمحا سهلا متي وجد الدعاة الواعين ، القادرين ـ بما لهم من حكمة وحصافة ـ على التوصيل .

والناس صنفان : صنف يحفظ الحقيقة ، ويصونها ، ويؤديها سليمة وافرة بلا زيادة ولا نقصان . وهؤلاء بامانتهم يسهمون بقدر كبير في الحفاظ على الحق ودعوته وان لم تكن لهم القدرة على اذاعتها ونشرها .

وصنف آخر لهم القدرة على فهم الحقائق والنصوص وفقهها والاستنباط منها ، مما يساعد على اذاعة الحقائق وتجسيدها والعمل بها واول الصنفين ضروري لانجاح مهمة الصنف الآخر .

وهذا المعني هو الذي اشار اليه رسول الله ﷺ اذ قال : **نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع**[1] **.. ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .**

وقد اجتمع في رسل الله تعالى ما في الصنفين من الخير ، اذ اجتمع فيهم الامانة في التبليغ مع الفقه والفهم .

---

(١) رواه ابو داود . وابن ماجه . واحمد . والدارمي .

هذان امران اساسيان ، لتؤدى عملية الدعوة مهمتها ، ولتؤتي ثمرتها وهناك امور اخرى هي في طبيعة الاسلام نفسه . نابعة من جوهره ، ناشئة من التناسق الفريد ، والتصور الحكيم المحكم للحياة وللناس ، ضرورة أنه من لدن حكيم خبير ، خلق الانسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، فشرع له ما يصلحه ويصلح له ، ويحقق له خير الدنيا والآخرة ، ويمنحه الحياة الطيبة في عاجل امره وآجله . وقد قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ (الانفال : ٢٤)

﴿ **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ (البقرة : ١٨٦)

﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسني ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ (الرعد : ١٨)

هذه الخصائص التي عرف بها المنهج الاسلامي ، وأشارت الآيات الى قيمتها تسهم بدور فعال في عملية الدعوة الى الاسلام . ويمكن ان نحددها فيما يلي :

١ ـ المسايرة للفطرة .

٢ ـ التوافق بين العقل والنقل .

٣ ـ الوفاء بمطالب الانسان .

٤ ـ الاجتهاد الذي يمنح النصوص قوة متجددة في مواجهة كل جديد في حياة الناس .

(١) الاسلام دين الفطرة

اذا قلنا « الفطرة » فانما نعني الخصائص والنوازع الانسانية التي خلق الله الانسان عليها ، بعيدا عن التأثر بموروثات الآباء والأجداد أو مؤثرات البيئة التي تلزم الانسان بأنواع من السلوك والأعراف لا يستطيع عنها حولا ، ولا يملك منها خلاصا .

وهذه الفطرة ــ كما هي ــ غير متأثرة ببيئة أو تقليد لا تجد عسرا في قبول الدين الحق ، والانصياع له ، لانه عندما يأتيها الدين من عند الله تحس به متجاوبا مع مطالب النفس وآمالها ، محذرا لها مما تحذر منه بطبعها .

يقول ربنا تبارك وتعالى عن دين الفطرة : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (الروم : ٣٠)

ويتحدث رسول الله ﷺ عن سلامة هذه الفطرة طالما هي بمعزل عن المؤثرات الخارجية فيقول : « **كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء** [١] **هل تحسون فيها من جدعاء فطرة الله التي فطر الناس عليها** » [٢] .

فالفطرة الانسانية تعني الاستعداد التام للخير والتأهل له .

---

(١) جمعاء يعني سليمة من العيوب مجتمعة الاعضاء كاملتها ليس فيها جدع ــ النهاية ٢٩٦/١ .

(٢) رواه الامام البخاري .

والله الذي خلق الانسان في احسن تقويم منحه الدين القويم الذي يسمو به في عليين ، فاذا تغلب عليه الهوى ، وطغت عليه البيئة ، ردته الى اسفل سافلين .

والانسان والدين كلاهما من صنع العليم الحكيم ﴿ **صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون** ﴾ (البقرة : ١٣٨)

واتساق الدين مع الفطرة السوية تؤكده مظاهر عدة .. اولها بساطة العقيدة . فعقيدة الاسلام تقبلها النفوس في يسر ، اذ هي تقوم على اسس فطرية سوية : ﴿ **والهكم اله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ (البقرة : ١٦٣) فلا يحس العقل جهدا في تصورها ولا في الاقتناع بها . فالذات الالهية واحدة ، والله ـ وحده ـ المستحق للعبادة . اعني وحدة الذات ووحدة العبادة . والفطرة السليمة لايمكن ان تقبل غير هذا . ومن عدا الله وما عداه عباد متساوون ، يتفاضلون فيما بينهم بالتقوى وصالح الاعمال . فليس في عقيدة الاسلام غموض أو ألغاز . ولا تحتاج في تصورها إلى مقدمات فلسفية ضاربة في الابهام . ولا نضطر لحل رموزها غير المعقولة إلى اختراع القصص وابتكار المسرحيات والعلاقة بين المعبود والعباد لا يحكمها شفيع أو وسيط . فليس بين الله وعباده بشر أي بشر ، يقدم أو يؤخر . إن عقيدة الاسلام بريئة كل البراءة من ذلك كله . ويكفينا لنتصور فطريتها ، وتملكها للمشاعر الانسانية المستقيمة بحكمة واقتدار ان نستمع أو نقرأ هذه الآيات .

يقول تعالى مخاطبا نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ـ وفي

توجيه الخطاب له في هذا الموقف مغزى عظيم : ﴿ **واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لي . وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ (البقرة : ١٨٦)

ويقول تعالى : ﴿ **قل : يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم** ﴾ (الزمر : ٥٣)

ويقول تعالى : ﴿ **قل : لا اقول لكم عندي خزائن الله ، ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ، ان اتبع الا ما يوحى إليَّ** ﴾ (الانعام : ٥٠)

والنبوة مكانة سامية يصطفي لها الله من يشاء من عباده ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، والنبي بشر معصوم من الناس ، ومن هوى النفس حتي يبلغ شريعة الله سليمة وافرة .

فلا تجد في فهم العقيدة الاسلامية ولا في تصورها غموضا يجعلها تقف امامها في صغار بلا يقين ، أو في إذعان بلا فهم . وقد عرفها المتحنفون العرب قبل الاسلام بالفطرة الهادية .

تسمع احدهم يقول : البعرة تدل على البعير ، والسير يدل على المسير سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير .

ويهيب القرآن الكريم بالفطرة لكي تصحو ، وتتيقظ ، وتتعرف على الحق فيقول تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ ؟ ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة** ﴾ (الاحقاق : ٥)

واذا انتقلنا من العقيدة إلى العبادة نجدها منهاجا فطريا بالغ الوضوح لأخذ الانسان إلى صلة وثيقة بالله تملأ قلبه ثقة وامنا وطمأنينة . وهي كلها خطة للتيسير ، وسبب للتطهر ، وأسلوب لشكر النعمة ، يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون**﴾ (المائدة : ٦) ﴿**يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر**﴾ (البقرة : ١٨٥)

والفطرة ترفض التكلف والتنطع ، لان فيهما تزيدا على الحكيم الخبير . والنبي ﷺ يقول : « **هلك المتنطعون** » ويذكر ذلك مرات ومرات . ويقول ﷺ : « **ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا** »[1] . ويقول تعالى : ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ (الحج : ٧٨) . ويقول ﷺ : « **ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقي** »[2] .

إن كل اعمال العبادات الاسلامية له حكمة مشهورة . فماذا في الفطرية اقوى من هذا واحكم ؟ واوضح دليل لهذا ان العبادات المفروضات ، ترتبط بجهد الانسان وطاقته فمتي وسعه الجهد بقي الالزام ، ومتي قل الجهد أو ذهب رفع الالزام أو ارجئ أو تغيرت صورة العبادة . فمثال رفع الالزام . من لا يَستَطِعْ الحج فلا حج عليه ، ومن لا يملك النصاب فليس عليه زكاة . ومن هو

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه احمد ، وفيه بعد كلمة برفق : « ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك » .

دون البلوغ فليس عليه تكليف . ومثال الارجاء : من كان مريضا أو على سفر في رمضان فمن حقه الفطر ، ويصوم بدلا منها عند الصحة أو الاقامة . ومثال تغير الصورة : في الصلاة ، من لا يستطيع الصلاة قائما يُصَلِّ قاعدا أو مضطجعا على احد جنبيه ، أو مستلقيا على ظهره . ويمكن ان يصلي بالإيماء إن لم يقدر على الركوع والسجود .

وعبادات التطوع متروكة لظروف الانسان الصحية والمعاشية وإن لم تسعفه احداهما ، وحافظ على ما فرض عليه فقد أفلح ، كما قال رسول الله ﷺ للاعرابي الذي قال : والله لا أزيد على هذا ولا انقص ـ يعني فرائض العبادات : **افلح إن صدق**[1] .

وفي قضية الحلال والحرام في الاسلام مسايرة تامة لفطرة الانسان . فالذي حرمه الله ينفر منه كل طبع سليم ، وفطرة قويمة . والذي أحله الله تألفه النفوس السوية وتقبل عليه . ولذا يقول تعالى في بيان قاعدة الحلال والحرام : ﴿ **يسألونك ماذا احل لهم ، قل : أحل لكم الطيبات** ﴾ (المائدة : ٤) ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات** ﴾ (المائدة : ٥) .

وفي رسالة النبي محمد ﷺ كما حددها القرآن ﴿ **يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم** ﴾ (الاعراف : ١٥٧)

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : « **الحلال بين والحرام بين**

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

وبينهما امور مشتبهات »[1] .

ويجعل النبي عليه الصلاة والسلام فطرة المسلم حكما في قضية الحلال والحرام ، اذ يقول لمن سأله عن البر والاثم : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك في الصدر ، وخفت ان يطلع عليه غيرك ، وان افتاك الناس وافتوك[2] .

وفي شريعة الفطرة التي جاء بها محمد ﷺ رفعت الاصار والاغلال ، وانتهى العمل بقوانين التحريم للتأديب التي فرضت على بني اسرائيل ، والتي قال عنها ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون** ﴾ (الانعام : ١٤٦)

وبعد اجتناب المحرمات التي حرمت لخبثها ولاضرارها بجسم الانسان ، أو ماله أو عقيدته لا حرج على الانسان فيما يطعم ويشرب ما دام رائده الايمان والتقوى والاحسان ، يقول تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا مااتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ (المائدة : ٩٣)

وكان موقف الاسلام من الغرائز البشرية ، وهي متعددة ومتنوعة يتسق تماما مع رسالة الانسان في الحياة ، وان تناولها

---

(١) جزء من حديث رواه النعمان بن بشير واخرجه البخاري .

(٢) اخرجه احمد في مسنده ، ومسلم في كتاب البريدون الجزء الاخير .

بالتعديل فالى سمو يرتقي بشأن الانسان ويعينه على النهوض باعبائه لتتحقق له السيادة على هذه الارض التي استخلفه الله عليها ، واستعمره فيها . ففي الانسان غريزة الجنس . يسر الله له سبيله بالزواج المشروع ، في اطاره الانساني الكريم الذي يحفظ له نسبه . ويبقي له رابطة العرق التي تشده إلى آبائه واجداده والنسب من مظاهر التكريم التي اختص بها الانسان حيث لا تجد الانساب مرعية في عالم الحيوان ، ولذا قال ربنا : ﴿ **وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا** ﴾ (الفرقان : ٥٤) . كما حال بين الانسان وبين الممارسة الجنسية التي تزري بانسانيته وتضيع عليه فضيله الانتساب إلى آبائه واجداده .

وفي الانسان غريزة الصراع . منعه الله من البغي ، والتسلط ، واراقة الدماء بغير حق ، والجري وراء شهوة الغضب ، اذ كان النبي ﷺ يحذر اصحابه مرارا من الغضب .

واباح له الحرب دفاعا عن النفس ، وانتصارا للقيم ، وتأمينا لدعوة الله ولهذا نرى القرآن الكريم ذكر للحرب مهمة انسانية حتي ان الانسانية بدونها يصيبها الفساد ، ويضيع منها الحق والعدل . يقول تعالى : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض** ﴾ ويقول ربنا هذا بعد حديث حرب كريمة كسرت شكيمة البغي . ورفعت لواء الحق . ويقول تعالى بعد أن أذن للمسلمين بالحرب : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز** ﴾ (الحج : ٤٠) .

وحب المال وامتلاكه غريزة وفطرة . وقد فتح الاسلام طريقه للإنسان عن طريق العمل الصالح ، والكسب الشريف ، وبذل الجهد والمعاناة . وحرمه تماما إذا جاء من طريق غير كريم فيه بغي أو ظلم ، أو استغلال كالسرقة والاغتصاب والربا والرشوة ونحوها .

وهكذا كل غرائز الانسان تناولها الاسلام بالتسامي والتعديل لتثبت أقدام الانسان على طريق الله ، وحتي يكون الدين كله لله .

وحذرنا ربنا من الشيطان الذي يبذل جهده من اجل التسفل بغريزة الانسان ليجرده من كرامته ، وينزله من مكانته ، وتضيع عليه خلافته ويهوى الى دركات الحيوانية الضالة .

وقوانين العقوبات في الاسلام جاءت صيانة للمجتمع السوي من نزعات المنحرفين ، وعبث الشذاذ ، ليقوم الحق . ويعم العدل ، وينتشر الامن . فاذا طرأت الشبه فلا يقام حد . لان الحدود لم تشرع لتكون مناهج تربوية ، يتعلم منها الانسان القيم والاعتزاز بالمبادئ الصحيحة ، والالتزام بالحق ، وانما شرعت ردعا لمن شذ وحفاظا على المجتمع السوي . والامم الصالحة تنشأ بالتربية على دين الله وشريعته ، الذي يجعله الله زادا كريما خصبا لفطرتها السمحة القويمة .

(٢) التوافق بين العقل والنقل

لم يقف امتياز المنهج الاسلامي عند حد احترامه للعقل الانساني وتقديره له ، وتوجيهه الخطاب اليه ، واعتباره اساس التكليف

بل انه تجاوز ذلك الى حد أننا نلحظ توافقا تاما بين النصوص الاسلامية ممثلة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين نتائج العقل البشري .

ولقد امتن الله تعالى على الانسان بنعمة العقل ، ليعينه على تخير الطريق الصحيح كما أنعم عليه بنعمة الدين ليعينه على تعرف ما لا يسعفه العقل بمعرفته ، وليقدم له الصياغة الصحيحة والمعقولة للمنهج الامثل في الحياة .

ولا يمكن ان تتعارض نعم الله ، أو تتناقض اهدافها وغاياتها . فالعقيدة في الاسلام تعتمد على العقل في كل الوجوه ، ونصوص العقيدة في الكتاب العزيز تتفتح لها جنبات العقل ، وتزيده خصوبة وثراء .

وما لا سبيل للعقل اليه كالحديث عن الذات الالهية وعوالم الغيب فان الدين الحق بنصوصه كفي العقل مئونتها ، ./شفاقا عليه من التخبط والضرب في بيداء المجهول ، بحيث لا يأمن الشطط ، وعثرات الطريق .

وفي فترة مبكرة من تاريخ الاسلام فتن بعض المسلمين بالفكر الفلسفي اليوناني وكان ولعهم به دافعا لهم الى بذل محاولات التوفيق بين الدين وهذه الافكار الفلسفية والتي سميت ــ خطأ ــ باسم التوفيق بين العقل والنقل اذ لو كانت توفيقا بين العقل الصريح مجردا من الاهواء ونصوص الاسلام الصحيحة لوجدوا اتفاقا تاما ، لا يحتاج الى التوفيق .

اذ ان ما فعله الفلاسفة المسلمون مثل ابن سينا والفارابي

والكندي وابن رشد ماكان سوى نوع من التكلف يلوون معه اعناق النصوص القرآنية لتتفق مع ما اولع به القوم من فلسفة ارسطو وافلاطون .

والنتيجة التي ترتبت على هذا ان مسائل العقيدة في الاسلام اكتست اثوابا من الغموض اذهب عنها طابع البساطة والوضوح التي اتسمت به عندما نستخلصها من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة . فالمغالطة التاريخية الواضحة ان اعتبر الفكر الاغريقي هو الممثل للعقل الانساني .

وكانت المضيعة الكبيرة في انهم توجهوا إلى الجانب الالهي بصفة خاصة مع أن القرآن الكريم قد اغناهم مئونة البحث عنها . وكان أمثل عمل لابراز التوافق بين العقل والنقل ما فعله الامام تقي الدين ابن تيمية في كتابه : موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول . وظل شغل التفكير الاسلامي بأمر هذا التوافق قائما . كما ظل هذا العمل سمة لكل حركة اسلامية اصلاحية في فترات التاريخ المختلفة فتحدث عنها جمال الدين الافغاني .. كما تحدث عنها حكيم الاسلام الشيخ محمد عبده .

وبدأت آثارها من قبل هذين العلمين في فكر محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن على السنوسي الكبير .

ولم يكن اتفاق العقل الانساني الصريح مع النص الصحيح مقصورا على جانب العقيدة . بل ان العقل الانساني في كل ما يصل اليه من علم وفكر وما يكشفه من سنن الحياة وقوانين الوجود يلتقي تماما مع الكتاب العزيز والاحاديث التي صحت

نسبتها لرسول الله ﷺ .

ففي العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ، والشأن فيها ان في طقوسها واشكالها ما يعز على العقل ادراك سره لكنها في الاسلام يحس العقل في رحابها غذاء ونماء ورضا لا حد له ، وراحة واستقرارا . فغير المسلمين لا ينقضي عجبهم بنظام الصلاة في الاسلام وما يسبقها من تطهر ، وما فيها من نظام وتناسق ، ومحافظة على المواعيد ، وطاعة تامة وتقويم للمخطئ . كما يحسون بروعة بالغة ازاء المؤتمر الاسلامي الكبير في الحج الذي جمع الاجناس والالوان والالسنة المختلفة من بني الانسان على شعار واحد هو لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى هتاف واحد هو : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك .

ودهشتهم عظيمة ازاء مدرسة الصيام التربوية التي تشمل الضمير والخلق والجسم .

وماذا يقول العقل الانساني في عبادة الزكاة التي تعالج نفوس الاغنياء من ادواء الحرص والشح والبخل ، ونفوس الفقراء من امراض الحقد والحسد والكراهية كما تنقذ المجتمع من جرائم السرقة والاغتصاب وقطع الطريق .

والتشريع المدني في الاسلام آية الآيات . وما من يوم يمر على الانسان إلا يبين له مدى ما في هذا التشريع من سداد واحكام وان غايته سعادة الانسان وصلاحه في ظلال الامن والعدل .

وتلتقي المجامع القانونية ، وتنتهي الى ان الشريعة الاسلامية هي اعظم مصدر للقانون العادل واى طائفة من بني الانسان حل بها

ظلم في فترة من فترات التاريخ ترى انقاذها في الاسلام وخلاصها في شريعته السمحة .

ولن تجد ابدا في الاسلام تشريعا غير معقول ، أو قانونا ليس له غاية أو لا يوصل الى خير أو عدالة .

ومن الحقائق المقررة ان القرآن الكريم كتاب هداية ، جمع اصول المعرفة الصحيحة ، وقواعد التفكير القويم كما قدم التصور السليم للحياة والوجود . وهو في الوقت نفسه ليس كتابا معنيا بمسائل العلم ونظرياته وفروضه لان مهمته أكبر من ذلك واعمق . ولذا فنحن لا نرحب كثيرا بان يشغل المسلمون انفسهم بتكلف ايجاد نظير قرآني للنظريات العلمية التي يصل اليها الانسان . لان ربط هذه النظريات بالقرآن أو السنة الصحيحة يعني اننا نعرض المفاهيم القرآنية للتقلب والتعارض كما ان النظريات العلمية تتعرض للنقض والتعديل .

لكن هناك امورا تشد العقل الانساني الواعي ، وتملؤه ثقة ويقينا بالاسلام وكتابه العزيز . هذه الامور تتمثل في ان ما يكتشفه الانسان من ظواهر الكون وقوانين الحياة يجد له سندا ومؤيدا في نصوص القرآن بطريق غير مباشر ، أو تراه وراء السطور والكلمات . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**﴾ (العنكبوت : ٤١) فموضوع الآية يوضح حقيقة هي ان المشرك بالله ، الذي اتخذ من دون الله اولياء وأندادا يستقضيهم مصالحه ، ويستجلب نفعهم لن

يصل الى ما يريد ولن يجد في ظلالهم امنا ولا قضاء لحوائجه . كما ان بيت العنكبوت واه لا قوة فيه ولا امن فيه . لكن علماء الحشرات يجدون في الآية سندا لبعض الافكار العلمية حول حشرة العنكبوت . فالتي تبني بيت العنكبوت هي اناثه لا ذكوره . ولذا جاءت الآية اتخذت (بتاء التأنيث) بدلا من اتخذ. وانثي العنكبوت تقتل ذكرها بعد اللقاح . فكأن بيت العنكبوت لا يأمن فيه صاحبه . ولذا صدق التمثيل به . اذا قلنا ان المشرك لن يجد امنا كذكر العنكبوت .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **ألم تر ان الله يزجي سحابا . ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد . فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالابصار . يقلب الله الليل والنهار . إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار** ﴾ (النور : ٤٣/٤٤) فالآية تقدم ظاهرة كونية ملموسة هي آية من آيات الله التي تؤكد ملكيته للسموات والارض . تتمثل في السحاب الذي يتلاقي ويتكاثف . ويتحول الى ركام . وينطلق من احتكاكه البرق ومن يقدر له السير خلال هذه السحب يصاب بالعمى المؤقت .

عندما اكتشف الانسان ظاهرة السحب الركامية . ولم يصل الى ذلك الا في الحرب العالمية الثانية اذ كان يقع بعض الطيارين في مصيدة هذه السحب في سماء افريقيا وغيرها . فيفقدون الرؤية . وتصيبهم الكوارث .

فالآية اذن مهمتها ان تهدي الى الايمان . ووجد الانسان

الباحث العاقل فيها سندا لمكتشفاته عزز ايمانه وقوى يقينه .

ويقول تعالى : ﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ (الكهف : ٢٥) جاءت هذه الآية في اثناء الحديث عن اهل الكهف من اجل تقديم ما في القصة من موعظة وعبرة تتمثل في انتصار الله تعالى لمن يلوذون به ويأوون إلى حماه ، وانه يسخر جنوده التي لا يعلمها إلا هو من اجل حمايتهم وكيف انعم الله على الفتية المهاجرين بنعمة عظيمة هي انهم رأوا باعينهم اليوم انتصار الدين الذي كان مضطهدا بالامس .

لكن ما الحكمة في سوق الآية على هذا النسق التعبيري بخاصة . وهو قوله : **وازدادوا تسعا** بدلا من ثلاثمائة وتسع سنين أو تسع سنين وثلاثمائة سنة .

في الاجابة عن هذا يرى العلماء كشفا لحقيقة كبيرة . هي ان هذه السنوات التسع التي ذكرت منفصلة عن الثلاثمائة ليست سوى الفرق بين التقويمين الشمسي والقمري . فالثلاثمائة سنة شمسية تساوي تماما ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية .

وغير ذلك كثير ، مما يؤكد حقيقة التوافق بين الدين والعقل . ولذلك لا نعجب اذا رأينا كثيرا من المفكرين الواعين يعرفون الاسلام من زاوية العقل ، وكثير من العلماء آمنوا بالاسلام من محراب العلم . وكثير من المؤرخين وعلماء الحضارة اعجبوا بالاسلام بعد بحث ودرس وسير في الارض .

وفقهاء القانون انتهوا الى ان شريعة الله هي الحق والعدل . ومن وصل الى ذلك من هذه للطوائف المختلفة من اهل العلم

واولي الالباب ما وصلوا لذلك إلا بتخليهم عن التقاليد والاهواء وموروثات الاجداد والآباء .. مما يجعلنا نؤكد ما بدأنا به من حقيقة : هي أن الدين الصحيح والعقل الصريح ـ دائما ـ متوافقان . ومتفقان .

(٣) الوفاء بمطالب الانسان

جاء الاسلام الحق نعمة من عند الله العليم الحكيم ليقدم للانسان صورة متكاملة للحياة الفاضلة ولما ينبغي ان يكون عليه مسلكه فيها . لينعم بخيرها . وليسعد بفضلها . وليستطيع ان يصل الى آجلة هي اكرم واسعد ، وخير وابقى .

وجهد الفلاسفة في تقديم هذا التصور للحياة الفاضلة منذ قديم . قدم الفيلسوف الاغريقي استاذ ارسطو جمهورية افلاطون ، قرنها باسمه ، ليقدم فيها فلسفته وتصوره . وحذا حذوه الفارابي ، وقدم المدينة الفاضلة . ومشي علي نهجهم مفكرون وادباء . وما قدموا للانسان في كل زمان سوى خيال يتصوره ، ولا يكاد يصيبه . قدموا له سرابا . يعلق عليه امله ، حتي إذا جاءه لم يجده شيئا . بنوا له قصرا اسطوريا يسيل له لعابه حتي اذا اراد ان يحققه ويحوله الى واقع صار مثل القابض على الماء خانته فروج الاصابع .

كل ما فعلوه إذن هي اهواء بشر . نزعات مثالية ينقصها الحكمة وصدق التصور . خيال جامح يحتاج الى العقل الواعي الذي يرده عن جموحه . خبرة ضئيلة بخفايا النفس الانسانية

وخصائص المجتمع البشري . ولذا لم تجد البشرية عندهم غناء أي غناء .

وجاءت آخر شريعة للاسلام على يد محمد عليه الصلاة والسلام بعد ان سبقتها شرائع اسلامية كفت واغنت . قدمت الشريعة الخاتمة للانسان ما هو في حاجة اليه في عصره ومصره وبعد عصره وخارج مصره .

علمته العلاقات والحقوق . وشريعة الاسلام مجموعة ما هي إلا مجموعة من العلاقات والحقوق . حق لله يجب ان يؤدى اولا بعبودية خالصة له وحده . وحق للابوين بالاحسان . ثم حقوق الاقارب والفقراء والمساكين ، ومن وليت امرهم في مجتمع المسلمين بالبذل والعطاء والعناية والرعاية .

والانسان محدود الجهد ، فلم يطالبه ربه بغير الوسع والطاقة اذ يقول تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا** ﴾ . ﴿ **لا نكلف نفسا الا وسعها** ﴾ .

قدمت اصول التعامل التي تدور حول المال والدم والعرض . ونظم الاخلاق والعلاقات الانسانية ، ومعها التطبيق . قدمت الحكم والامارة والولاية ونظمها وآدابها وقدمت التطبيق . قدمت الحرب ونظمها وآدابها وقدمت التطبيق . قدمت العبادات التي تنظم علاقة الانسان بالله ، وقدمت التطبيق . وكان التطبيق رائعا وحكيما . والمنفذ صادق امين ، اصطفاه الله لهذه المهمة الكبيرة . فاحسنها وأتقنها وحث على الاقتداء به ، وزكى فعله وعمله وقال : ﴿ **وان تطيعوه تهتدوا** ﴾ (النور : ٥٤) .

وقال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا** ﴾ (الاحزاب : ٢١)

ومن مظاهر عظمة التطبيق : ان النبي ﷺ اعطى الامة صورة عملية لكل شيئ . علمهم كيف يتوضأون استعدادا للصلاة . علمهم كيف يدخلون الخلاء ، ويتطهرون بعد قضاء الحاجة . وصف لهم كيف يغتسلون . ادى الصلاة وقال لهم : **صلوا كما رأيتموني اصلي**. وعندما ادى فريضة الحج قال : **خذوا عني مناسككم** . ما سأله سائل عن شيئ إلا وجد عنده اجابة له ، تفيده في امور الدين ونظام الحياة . وترك مسائل الدنيا القائمة على الخبرات الفردية والتجارب الشخصية الى الناس ، لانها تختلف باختلاف الازمان . والامكنة ، والاعراف . لكن أي شيئ يتصل بالخلق والسمو البشري ، وكرامة الانسان نبه اليه ولفت النظر له وحث عليه . فترى في سنته الراشدة آداب التحية والزيارة والطعام والشراب تطبيقا لما جاء في القرآن الكريم من مواعظ وتوجيهات . وقد قال الله تعالى :

﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيئ** ﴾ (الانعام : ٣٨)

وتكامل امر الشريعة الهادية وقدمت للانسان غناءه وكفايته . ونزل قوله تعالى ايذانا بذلك : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ (المائدة : ٣)

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ، مؤكدا وفاء الحق بمطالب البشر : ما تركت من شيئ يقربكم من الله إلا دعوتكم اليه ، ولا من شيء يقربكم من النار الا حذرتكم منه ،

ونهيتكم عنه

ونزلت آخر آية من القرآن الكريم لتحذر المسلمين من أي انحراف عن المنهج الكامل الوافي. يقول تعالى: ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله**﴾ (البقرة: ٢٨١)

(٤) الاجتهـــاد

عرَّف الفقهاء والاصوليون الاجتهاد بانه بذل الفقيه الجهد العقلي والعلمي في استنباط حكم شرعي من نص صحيح. والاجتهاد من اعظم الخصائص التي تميز بها الاسلام وشريعته السمحة، وقضية الاجتهاد اساسها: المسلم والنص. فما تعارف عليه المسلمون، وفهموه من كتاب ربهم ان الامر إذا صدر فيه حكم من الله وتطبيق من رسوله ﷺ فلا مجال فيه لرأي. أو على حد تعبير علماء الاصول لا اجتهاد مع النص.

ومرجعهم في هذا كله قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضي الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾ (الاحزاب: ٣٦)

وكذا موقف الصحابي الحباب بن المنذر عندما قال لرسول الله ﷺ وهو يعد العدة لغزوة بدر: أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: **بل هو الرأي والحرب والمكيدة**[1] .. عند ذاك عرف الحباب ان الامر

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٣٠٢

مجرد اجتهاد يحتمل المراجعة طلبا لما هو انفع للمسلمين واشار بمكان آخر للجيش المسلم واستجاب له رسول الله ﷺ .

فاذا لم يرد في القضية نص خاص بها ترك الامر لاجتهاد المسلمين . ودائرة الاجتهاد لا تتجاوز الإطار العام لمنهج الاسلام ولا تخرج عن روح نصوصه السمحة . فهناك احكام ورد بها نصوص في مناسبات معينة لكن هذا لا يعني انها مقصورة على مناسبتها ، بل يمكن ــ بالاجتهاد ــ ان يضم لها نظراؤها واشباهها . فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وهناك نصوص تحمل احكاما عامة [1] ، اراد لها الحكيم الخبير هذا العموم لكي تكون اطارا عاما يعالج في داخله قضايا الحياة المتغيرة المتجددة وبذلك يؤدي الفقه الاسلامي مهمته باعتباره حكم الله في هذه الحياة التي من شأنها التطور والحركة .

وبدون هذا الاجتهاد نحكم على الفقه الاسلامي ــ بما هو بريئ منه ــ من العجز عن مواجهة الحياة .

وقضية الاجتهاد ، وهي عمل فقهي حيوي ، بل هي عماد التفقه كله تستند الى نصوص ثابتة . منها قوله تعالى : ﴿ **ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ (النساء : ٨٣) فالذين يستنبطون هم هؤلاء المجتهدون ، الذين اوتوا وسائل الاجتهاد واسبابه ، وفي مقدمتها العلم باللغة وخصائصها التعبيرية .

---

(١) من هذه الاحكام العامة : مبدأ الضرورة اخذا من قوله تعالى : ﴿ **إلا ما اضطررتم اليه** ﴾ ومبدأ الضرر من قوله ﷺ : لا ضرر ولا ضرار .

واثني النبي عليه الصلاة والسلام على هؤلاء الذين يملكون القدرة على الاجتهاد ، اذ يقول ﷺ : « **نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها فرب مبلغ اوعى من سامع . ورب حامل فقه الى من هو افقه منه** » . واوضح النبي عليه الصلاة والسلام مكانة هؤلاء المجتهدين ومنزلتهم عند الله فقال : « **من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما انا قاسم والله يعطي** »[1] .

وقد يصدر النبي ﷺ لاصحابه امرا ويذهبون في تنفيذه مذاهب مختلفة ، اجتهادا منهم ، فيترك هؤلاء وأولئك دون أن يؤيد احدهما أو يلوم الآخر . فقد قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصل العصر إلا في بني قريظة** »[2] . وكان ذلك بعد خلاص المسلمين من عبئ الاحزاب حيث كفاهم الله القتال . فبعض المسلمين رأوا ان الغرض من الامر الحث : على السرعة ، وبذا صلوا العصر في الطريق عندما حل بهم وقته . وبعضهم الآخر تصور ان المراد انه لابد من الصلاة في ديار بني قريظة بصفة خاصة . وكأن هذا العصر لا يصح في غير دورهم ، واجلوا العصر ، وكان وقته قد مضي . ومع هذا لم يعقب رسول الله ﷺ على احد التصرفين بالتأييد أو المعارضة .

ومثل هذا مجيئ النص القرآني باباحة الفطر للمسافر . وكان يسافر رسول الله ﷺ في رمضان ، فيصوم البعض امتثالا لامره تعالى : ﴿ **وان تصوموا خير لكم** ﴾ ويفطر البعض طلبا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

للرخصة ، ولان الله يحب أن تؤتي رخصه كما يحب ان تؤتي عزائمه .

ولم يثبت ان رسول الله ﷺ اثني على الصائمين أو عنف المفطرين . بل انه في موقف رأى المفطرين اكثر نشاطا في خدمة الجيش المسلم فقال : « **ذهب المفطرون بالاجر كله** »[1] .

في ظلال حرية التفقه التي اعطاها الاسلام لأولي العلم واولي الالباب هيئت ارض خصبة لنمو اكبر واوسع حركة تشريعية في تاريخ الانسان . فاجتهد النبي ﷺ . واجتهد الصحابة والراشدون منهم . واجتهد التابعون وتابعوهم . وكل منهم يسابق إلى استنباط حكم من آية أو حديث فيه علاج لقضية جديدة .

واخذت حركة الفقه تتسع وتنتشر ، وتنمو وتتعمق . ويثبت الفقه الاسلامي قدرة عظيمة على المواجهة . وبدأت تظهر مذاهب تفكيرية مختلفة في حركة التفقه ، تحمل وجهات النظر المتباينة ، والافهام المختلفة للفقهاء .

ظهر الامام ابو حنيفة النعمان بحركته الرائدة ومذهبه المتميز في الفقه الاسلامي . اذ كان يقدم القياس على النص القرآني على خبر الاحاد . وتتلمذ عليه الامام مالك ، وخالفه في بعض اصوله . وجاء الامام الشافعي بمذهب متميز عن استاذه مالك وان التقى معه في كثير من اصوله . وجاء الامام احمد يقيم مذهبه على النص اكثر مما يقيمه على الاجتهاد .

---

(١) رواه مسلم باب الصيام .

وكانت حركة الاجتهاد في قمة خصوبتها في القرنين الثاني والثالث وهي الفترة التي ظهر فيها الأئمة الاربعة . ومن عجيب الامر ان الامام الشافعي عندما انتقل الى مصر كان له في الفقه مذهب جديد ، اختلف عن مذهبه القديم . وتعدد الفقهاء وتكاثروا في نطاق المذاهب الاربعة ، وفي خارج نطاقها .

وهذه الحركة – بلا شك – كانت كسبا لشريعة الاسلام اكسبتها خصوبة ونماء ونضجا . لكن نقطة الخطأ في هذه الحركة ان يصبح اجتهاد الأئمة نماذج تقلد ، وتحتذى ويستسلم لها استسلام النصوص . وهذا يعني امرين خطيرين :

اولهما : اعتبار اجتهادهم شرعا واجب التنفيذ .

ثانيهما : اعتباره الحجة ، مع ان الحجة للنص والنص وحده .

ومن اجل هذا وجدنا الأئمة الاربعة الاعلام انفسهم يحذرون من هذا الاتجاه ويرأون منه ، ويقدمون التقويم الحقيقي للاجتهاد الذي هدوا اليه .

اثر عن الامام ابي حنيفة قوله : اذا وجدتم كلامي يخالف كلام رسول الله ، فخذوا بكلام رسول الله واضربوا بكلامي عرض الحائط . وكان الامام مالك رضي الله عنه يقول : كل انسان يؤخذ من كلامه ويرد الا صاحب هذا القبر (مشيرا الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام إذ كان يلقي دروسه في مسجده) . ويقول الامام الشافعي : لا تقلدوني ، ولا تقلدوا مالكا ، ولا الاوزاعي ولا الثوري وخذوا من حيث اخذوا . كما كان يقول : ان صح الحديث فهو مذهبي . وكان الامام احمد اماما لاهل

السنة . وامتحن اقسي ما يكون الامتحان من اجل الحفاظ على سنة النبي ﷺ والعمل بها في وجه التيار الجارف المولع بالفكر اليوناني وما ادى اليه من آراء مبتدعة . كما كان ـ رضي الله عنه ـ يرفض التقليد ، ويبرأ من تقليده في رأي أو حكم ، تبين فيما بعد مخالفته للسنة الصحيحة .

لكن بعد عصر الائمة اخذت مسيرة الفقه طريقا غير سديد . استمر بعدهم الاجتهاد لكن في دائرة مذاهبهم وفي اطارها ، وبهذا اصبحت مذاهبهم قوالب ونماذج لكل مجتهد بعدهم لا يستطيع عنها حولا . ثم انتقل الاجتهاد الى تبعية اضيق افقا ، واقل مرونة . اقفل باب الاجتهاد ، واعلن ضرورة التقليد .

ووجدنا بعض العلماء في عصور الجمود والتقليد يعلن ان من الواجب تقليد احد الائمة الاربعة . ولا ندري من اين استمد حكم الوجوب ؟ أمن الكتاب ؟ أم من السنة ؟ ولماذا الائمة الاربعة بالذات ؟

وهذا كله يعطينا حقيقة الصورة التي انتهى اليها امر الفقه الاسلامي حتي عجز عجزا تاما عن مواجهة القضايا الجديدة في الحياة . وبدأت الامم الاسلامية تنسل تباعا باحثة في تشريعات الانسان عما يسد لها مطالبها الحيوية من تشريع أو قانون . وهكذا عطل الجمود خصيصة عظيمة وميزة كبيرة من مزايا تشريع الاسلام . الى ان جاءت حركات الاصلاح منذ عصر ابن تيمية الى الآن تهز بعنف صروح التقليد والجمود ، وتحارب الدخيل ، وتفتح باب الاجتهاد وتنشر شعاع الاستنارة في عقول المسلمين ،

ليصلوا من تاريخهم الناهض وماضيهم المجيد ما انقطع .

وعادت الحياة الى الفقه الاسلامي ، وواصل مسيرته الجادة من جديد في حل مشكلات المسلمين . وعلى عاتق علماء الاسلام تقع مسئولية دعم هذه المسيرة ودفعها الى طريق النهضة والتقدم .

الفصل الثاني

منهج الدعوة في الاسلام

(١) الحكمـــة .

(٢) الموعظة الحسنة .

(٣) الجدل الحسن .

(٤) السير في الارض .

(٥) معني القدوة في شخص الداعية .

(٦) نماذج تطبيقية من القرآن الكريم .

اسلوب الدعوة في الاسلام

اصبحت الدعوة الآن علما له اصوله الراسخة ، وقواعده الثابتة . واصحاب المذاهب والافكار الآن يتسابقون الى التجديد في اساليب الدعوة سعيا وراء الاقناع ، والاستحواذ الفكري . وقد سخرت دراسات علم النفس في التعرف على اقرب السبل ، وايسرها واجداها في الوصول الى نفس الانسان الذي يراد اقناعه واحتواؤه .

كما سخرت دراسات علم الاجتماع بما فيها من بحوث عن خصائص المجتمعات ، والتغير الاجتماعي والسكان للاستعانة بها في الغزو الفكري للمجتمعات ، وتقديم الاساليب التي تناسبها ، وتجعل امتلاك عقولها سهلا ميسورا .

والعلم بمخترعاته ، ومكتشفاته يسهم بدور بارز في عملية الدعوة بعد ان قدم للبشرية ادواته المؤثرة من مكبرات الصوت ، والاجهزة الحاكية ، والاجهزة المسجلة والاذاعات المرئية ، والمسموعة ، وكذا الصحافة آية الآيات .

وعصرنا هذا الذي يشهد صراع المذاهب والافكار لا يزال يقدم كل يوم جديدا من وسائل الدعوة وآلاتها المؤثرة في جماهير البشر .

لماذا هذا كله ؟ لان الدعوة اقناع ، والاقناع مناطه العقل ، والعقل يريد حقائق وشواهد ليقتنع ، ويريد معارف وتجارب ليرضي ، وله مداخل لابد ان يسار اليه منها ، والعاطفة تأتي وراء العقل وفي خدمته اذا رضي بما دعي اليه واستجاب .

ومن هنا نرى ان اساليب الاثارة ، والانفعال لا تقدم شيئا للدعوة ، بل هي كنار الهشيم ترتفع الى عنان السماء ، ثم تخبو كأن لم تكن شيئا ، أو هي كسراب يخدع فاذا سعى اليه الرائي لم يجده شيئا ، كما ان اسلوب الاثارة لا يقدم له تصورا صحيحا ولا يخلق لديه وعيا أو استنارة .

واذا عقدنا مقارنة بين اساليب الدعاة الى الاسلام في عصرنا الحاضر واساليب الداعين الى الماركسية ، أو الوجودية ، أو الصهيونية ، أو الرأسمالية ، أو حركات التبشير الصليبية وغيرها من (ايديولوجيات) ومذاهب وافكار ماذا نجد ؟

نجد ان كثيرا من الدعاة الى الاسلام ادواتهم في الدعوة عقيمة واساليبهم غير موصلة . وليس للدعوة مناهج محددة ، أو خطة ثابتة . وحركة الدعوة في داخل البلاد الاسلامية الواعية ، والمؤهلة للدعوة وخارجها تتم بطريقة عشوائية عاطفية ، ولا تقوم على اسس علمية . والامر متروك لشخص الداعية وامكاناته العلمية والثقافية والفكرية . كما نجد قصورا كبيرا في عملية الدعوة . ولا تزال توجد اصقاع كبيرة على ظهر الارض ، لا تعرف شيئا عن الاسلام واذا عرفت شيئا فأكثره زيف وتحريف ، يسيئ اكثر مما يحسن .

ان سلبيات الدعوة المعاصرة لنا لقاء معها فيما بعد . لكن الذي اريد ان اسجله هنا هو ان اصحاب المذاهب المعاصرة اخذوا بالمنهج الاسلامي في الدعوة . وما فيه من خصائص علمية وواقعية دعا اليها القرآن الكريم . ونلمحها واضحة جلية في قصصه الحق عن الانبياء والرسل بينما نحن تخلينا عن هذا المنهج . وسرنا بلا قاعدة تشدنا العاطفة الثائرة حينا . ويخدعنا الزيف والاسرائيليات حينا آخر ونعمل لحساب اصحاب السلطان في بعض الاحيان . وفي احيان اخرى نتخذها وسيلة للكسب والثراء أو السعي وراء الحكم والسلطة .

وهذا يدعونا الى تقديم دراسة جادة عن الدعائم التي يقوم عليها اسلوب الدعوة في الاسلام . من خلال التوجيهات القرآنية . وما يوحي به القصص الحق من اساليب للدعوة نلتمسها من المنهج الحكيم للرسل والانبياء .

لذا نستطيع ان نذكر الأسس الآتية :

(١) الحكمة .

(٢) الموعظة الحسنة .

(٣) الجدل بالتي هي احسن .

(٤) السير في الارض والنظر .

(٥) معني القدوة في شخص الداعية .

(١) الحكمــة

الحكمة صواب القول . وسداد العمل . واستقامة الرأي .

وهي مرتبة فكرية ، وعقلية ، يسمو اليها الانسان عندما يصل بايمانه السديد ، وتوحيده السليم ، وعقيدته الخالصة الى تصور سليم للحياة والموت ، والمعاش والمعاد ، والدنيا والآخرة ، والدين الحق ورسالته .

واذا كان للدابة حكمة (بفتح الحروف الثلاثة) تحكم مسيرتها فلا تضل بها السبل فالحكمة للانسان المسلم بهذه المثابة وعي ، واستنارة وهداية تبصره بمواقع قدمه ، ومعالم طريقه ، وترسم له ما يأتي وما يدع .

ولذا قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا اولوا الالباب** ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

ومجيئ هذه الآية بعد آيات تتحدث عن الصدقات ، وتقارن بين صدقة الاخلاص ، وصدقة الرياء ، وتحذر من اختيار المال الخبيث للصدقة ومن تأثير الشيطان على الانسان ليحول بينه وبين الانفاق . كل هذا يؤكد أن الحكمة التزام بمنهج الله ، وثبات راسخ امام الإغواء والاغراء .

ومن اجل هذا نجد القرآن الكريم يعطف الحكمة على الكتاب مما يشير إلى الملازمة بينهما مثل قوله تعالى : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** ﴾ (البقرة : ١٥٩) .

وقوله تعالى : ﴿ **كما ارسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾ (البقرة : ١٥١)

وقوله تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين ، اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ (آل عمران : ١٦٤)

وقد علم النبي ﷺ اصحابه الحكمة في سنته الراشدة التي حول فيها تشريع رب العالمين في القرآن الكريم الى تطبيق عملي سديد . واقوال حكيمة ، وتوجيهات رائعة .

وامثل ما في الحكمة الوقوف على حدود الشريعة . ففي سورة الاسراء ، يبين لنا ربنا حق الله في العبادة ، وحق الابوين في البر ، وحق الاقارب في الاحسان ، وحق المجتمع في الاقتصاد ، والبعد عن التبذير والتقتير ، والكف عن الزنا والربا والسحر ، وقتل النفس . وبعد هذا يقول ربنا تبارك وتعالى مشيرا إلى هذا السجل من الاوامر والنواهي ﴿ **ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة** ﴾ (الاسراء : ٣٩) .

وما من نبي إلا آتاه الله الحكمة . ذلك لانها جوهر الرسالة بما فيها من احكام ، وعدة الرسل في تبليغهم ما اوحى اليهم من رسالات ربهم ، بما تستلزمه من ضبط اللسان ورقة الكلام ، وحسن الخلق . يقول ربنا تبارك وتعالى في شأن داود عليه السلام : ﴿ **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ (ص : ٢٠) .
وفي نصيحة لقمان لابنه التي سجلها القرآن الكريم على لسانه ، نرى تفسيرا جديدا للحكمة ، إذ يقول جل شأنه : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله** ﴾ (لقمان : ١٢)

ففيم كانت حكمة لقمان كما فسرتها الآيات التالية ؟

تبدو في تحذيره ابنه من الشرك ، ودعوته للبر بوالديه ، وامره باقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على ما اصابه الى آخر ما حذر منه لقمان ابنه .

فمن مظاهر الحكمة ان يوفق الداعي في دعوته ، وان يحسن نصيحته صياغة ومضمونا وشكلا وموضوعا ، ومعني واسلوبا .
وهذا هو ما فعله لقمان الحكيم ، وهو جانب امثل من جوانب الحكمة .

واذا كانت الحكمة كما اسلفنا تتمثل في اخلاص العبادة ، والالتزام بشريعة الله والعمل بكتابه ، وتطبيق المناهج الخلقية فيه ، كما تتمثل في مخافة الله وتقواه وهما رأس الحكمة . فانها تتحقق بصورة اعمق واكبر عندما تكون الحكمة منهجا واسلوبا للداعية الى الله .
وحكمة الدعوة تتحقق في امور :

(١) عنصر الزمن .
(٢) البيئة المكانية .
(٣) العبارة والصياغة .
(٤) نزاهة العرض .
(٥) اثارة النوازع الانسانية التي تعزز الثقة في الداعي
(٦) الجمهور الذي يوجه اليه الدعوة .

(١) عنصر الزمن :

الزمن إطار عام يحكم حياة الناس له بصماته ، ومؤثراته التي توجه سلوك الناس توجيها خاصا ، وحكمة الداعية تتيح له فرصة استثمار الزمن الذي يعيشه لانجاح دعوته .

فهود عليه السلام ، وهو يدعو قومه عاد إلى الله يذكرهم بما اتاحه لهم الزمن الذي يعيشون فيه من فرصة الخلافة لقوم نوح ، فيقول كما حكى لنا القرآن الكريم : ﴿ **أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . وزادكم في الخلق بصطة** ﴾ (الاعراف : ٦٩)

وقال هذا القول صالح لقومه ثمود : ﴿ **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد . وبوأكم في الارض** ﴾ (الاعراف : ٧٤)

وعندما كان الشرك ضاربا ، والبغي غالبا واجه النبي محمد ﷺ هذا العصر باسلوب يناسبه ، فكان يسر الى الناس بدعوته معتمدا في هذه الفترة على العلاقات الفردية والروابط الشخصية ذلك لان المواجهة العلنية تثير في طريق الدعوة من اول الامر عقبات لا قبل لها بها في ايامها الاولى .

وظلت الدعوة على هذا النهج ثلاث سنوات .

وكلما كان الداعية على صلة باحداث عصره ، وعلى المام بظروفه وملابساته ، يعرض دعوته ، ويصوغ حجته على ضوء الاحداث التي يعيشها ضمن لدعوته التأثير والبلاغ . واذا كان بمعزل عن العصر واحداثه فانه بهذا يضرب في حديد بارد ، يقدم للناس ما لا يحسونه ، ولا يشعرون به . وابرز دليل لذلك نزول القرآن الكريم منجما حسب الاحداث التي تمر بالدعوة .. وتكون بالتالي سببا لنزول ما ينزل من آيات .

فمن حكمة الداعية ان يتوخى المناسبة الزمانية . ففي رمضان يتحدث عن الصيام ، وحكمته ورسالته التربوية ، لا بهذا

الاسلوب المبتذل ، المألوف لدى الناس حتي انهم يحفظون كلماته وعباراته ، ولكن يمكن ان يجعل الحديث عن الصيام اطارا لعرض قضايا كثيرة يجهلها الكثيرون ، وفي الوقت نفسه لها صلة بالصيام . منها :

* انتصارات المسلمين على اختلاف العصور في رمضان.
* غزوة بدر وغزوة الفتح وما وراءهما من انتصارات كبيرة.
* القرآن وعلاقته بالصيام . ولماذا فرض الصيام في شهر رمضان.
* يمكن للمسلمين في بقاع الارض ان يجعلوا من رمضان يوم الدستور السماوي .

وفي شوال يحمل الحديث عن محنة احد ودروس الهزيمة . وفي ذي القعدة يطيب الحديث عن ميثاق الحديبية ، وعن فريضة الحج ، وتقديم الموضوعات التي تتصل بهذه العبادة المتميزة التي تتناول العبادة فيها نواحٍ شتي في الانسان مثل الحل والاقامة . والسعي والطواف ، وذكر الله في مواطن كثيرة . والالتقاء العظيم يوم الحج الاكبر الذي يجمع المسلمين على اختلاف السنتهم والوانهم في مؤتمر عظيم قلما يتيسر مثله في غير الحج .

وفي ذي الحجة ايضا يأتي مع الحج موضوعات اخرى تتحدث عن الفداء في الاسلام كما تتحدث عن ابراهيم ، وابتلاء الله تعالى له بكلماته التي اتمها فكان اماما . والحديث عن ابراهيم يقدم براهين شتي للايمان .

قد سمعت محاضرا يتحدث عن غزوة بدر الكبرى ، وقبيل المحاضرة كان المطر يسقط رذاذا ، فاتخذ من المناسبة الطارئة وهي

المطر سببا للحديث عن المطر الذي امتن الله به على المسلمين يوم بدر ، ومنه الى الحديث عن بدر ، فكان موقفه حسنا .

وهذا الداعية الذي انفصل تماما عن عصره ، ويحدثنا عنه الدكتور احمد امين في كتابه زعماء الاصلاح في العصر الحديث . يقدم للناس كلاما مكررا ألفوه ، لا يتصل بالمشكلات الملحة في حياتهم حتي انه في آخر الخطبة يدعو للسلطان عبدالحميد . لانه هكذا قرأ في الديوان الذي امامه وقد غاب عنه ان الناس الذين يخطب فيهم يعيشون بعد عصر عبدالحميد بعشرات السنين .

ان صلة الداعية باحداث عصره على مستوى وطنه الذي يعيش فيه وعلى مستوى الوطن الاسلامي الكبير يمنحه من سعة الافق . وعمق الفهم ، وقوة الدراية ما يجعل موعظته بالغة ، كما يجعل لها تأثيرا على الصعيد الاسلامي كله .

إن الانسان الذي مكنه الله من كونه ، وآتاه من كل شيءً سببا . فأتبع سببا ، وغزا البحر والجو ، وانقادت له قوة البخار . والكهرباء . والقوة الناشئة عن التفجير النووي ، والاشعاع الذري . يحتاج من الداعية المسلم الذي يملك ما هو اقوى واسمى من ذلك كله وهو الهداية الى الله والى منهجه الحق في الحياة ان يتحدث اليه بلغة عصرة التي تقنع عقله ، وترضي عاطفته .

ومعنا مثل واضح : اسلوب الدعوة في القرآن ، اذ نجدها في مرحلة ما قبل الهجرة تختلف في اسلوبها والموضوعات التي تقدمها عن مرحلة ما بعد الهجرة .

ما قبل الهجرة دعوة لبناء عقيدة التوحيد في القلب . وما بعد

الهجرة دعوة لاقامة حكم الله وشريعته في المجتمع .

ما قبل الهجرة مرحلة صراع فردي ، لم يتجاوز مكة . ما بعد الهجرة مرحلة صراع جماعي خرج من حدود الجزيرة العربية الى الاطراف .

عنصر الزمن اذن يعطي النصيحة حيوية يشعر معها الانسان بمسيس الحاجة اليها ، ومن هنا كانت تمثل مظهرا من مظاهر حكمة الداعية .

(٢) البيئة المكانية :

والمكان الذي يقوم فيه الداعي بدعوته ، وما يحيط به من ملابسات لابد ان يكون له حساب في تقدير الداعية . فالناس في كل مكان اعراف وتقاليد . ولهم مألوف ، وموروثات . ولهم تاريخهم ، والشكل الاجتماعي المميز لهم . ولاهل كل مكان حرفتهم من زراعة أو صناعة أو تجارة ، أو صيد ، أو رعي ونحوها . واسلوب أهل المكان في التعامل متأثر بذلك كله .

ومن هنا كان المكان عنصرا هاما في عملية الدعوة . فآيات القرآن الكريم في مكة تحدثت عن العقيدة الصحيحة ووجوه انحراف القوم عنها ، ثم قدمت لهم احسن القصص عبرة وموعظة وتذكرة ، وحدثتهم عن يوم القيامة وعن الجنة والنار ترغيبا وترهيبا . لان هذه الموضوعات تعالج الانحرافات التي عرف بها اهل مكة .

وآيات القرآن الكريم المدنية ، قدمت التشريعات التي تلزم للدعوة في مهاجرها الجديد ، لتكون مددا دستوريا وتشريعيا لكل

ما تحتاج اليه الدعوة في ظروفها الجديدة .

وأهل مكة كانوا تجارا . وفي طبعهم المشاكسة . ولذا اطال القرآن الكريم الجدل معهم . واهل المدينة كانوا أهل فلاحة وزراعة فاستجابوا لدعوة الفطرة دون الحاح .

والمجتمع الصناعي عندما يدعى الى الله . لابد للداعي ان يضع في حسابه الكشف عن قيمة العمل والعمال في الاسلام . وان يتناول الافكار التي تروج في هذه الاوساط . وتأكيد ان الايمان بالله عمل وعدل . والتصدي لها باسلوب علمي اسلامي مقنع .

وفي المجتمعات الزراعية تنتشر الخرافات . ويعم الدجل . ويصبح الداعية مسئولا عن علاج هذه الانحرافات .

والدعوة الى الله في اوروبا وامريكا تستلزم دراسة العقلية الاوروبية وما وصلت اليه من علم وتكنولوجيا ، وتقديم المعارف الاسلامية لهم من زاوية الاقناع العلمي . وتقديم ما يثبت احترام العقل والعلم في الاسلام .

تحدث احد المحاضرين في جامعة اوربية عن دم الحيض . واضراره وضرورة البعد عن المباشرة الجنسية ايام الحيض ، وقام طالب عربي وقرأ للعالم المحاضر هذه الآية : ﴿ **يسألونك عن المحيض قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتي يطهرن** ﴾ (البقرة : ٢٢٢) فاستطاع بهذا ان يصل الى موطن الاقناع من استاذه .

ان قصور الدعوة الاسلامية في اوروبا كما وكيفا يتيح الفرص لاعداء الاسلام ليقدموا صورة حافلة بالتشويه . والمغالطة بحيث

يبدو امام الرجل الاوروبي والامريكي انه الدين الذي يظلم المرأة . ويبيح الاسترقاق والمتبعون له متأخرون عن ركب الحضارة . ويقدمون الامثلة من واقع المجتمعات الاسلامية .

والاصوات المتزنة التي تعرف الاسلام الحق من ابناء الغرب خافتة لا تستطيع ان تغطي مطالب الجماهير الكبيرة في التعرف على الاسلام الصحيح .

ونظرة منا الى الرسل في دعوتهم الى الله . نجد ان الدعوة الى العقيدة الصحيحة . وتقديم التصور السليم للايمان الصادق في مقدمة ما يهتم له الرسل . فما من رسول منهم إلا يبدأ قومه بهذه القضية : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** ﴾ . ثم يعمد الى الآفة التي استشرت في قومه . والى الداء الذي شاع فيهم . فيحذرهم منه . وينبههم الى سوء عاقبته .

مثال ذلك رسالة لوط عليه السلام . يحدثنا ربنا عنها فيقول : ﴿ **ولوطا اذ قال لقومه : اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء . بل انتم قوم مسرفون . فما كان جواب قومه إلا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون** ﴾ (الاعراف : ٨٠/٨٢)

ورسالة شعيب إلى مدين . يقول تعالى : ﴿ **والى مدين اخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير . واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط . ولا تبخسوا الناس اشياءهم . ولا تعثوا في الارض مفسدين . بقية الله خير**

لكم ان كنتم مؤمنين ، وما انا عليكم بحفيظ ﴾ (هود : ٨٤/٨٦)

وعاد ، هذه القبيلة العربية التي كان لها حضارة ومدنية ، فاترفوا وطغوا ، يقول لهم نبيهم هود عليه السلام : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعملون . أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون . اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ (الشعراء : ١٢٨/١٣٥)

وكذلك كانت قبيلة ثمود فقال لهم رسولهم صالح عليه السلام : ﴿ **اتتركون فيما ههنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله واطيعون . ولا تطيعوا امر المسرفين** ﴾ (الشعراء : ١٤٦/١٥١)

وقد اشار القرآن الكريم الى حضارة القبيلتين ، والمصير الذي انتهيتا اليه عندما جرفهما الطغيان عن واجب العبودية وحق الشكر وقدم ذلك عظة ودرسا لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **الم تر كيف فَعَل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾ (الفجر : ٦/٩)

وابلغ شاهد يؤكد رعاية عنصر البيئة المكانية في عملية الدعوة هو الآيات التي يزود الله بها رسله لاقناع المرتابين ، وافحام المعاندين ولتؤكد انهم من عند الله جاءوا ليبلغوا رسالته الى الناس . فكانت كل آية مناسبة لحاجة البيئة ، ولما مهر فيه القوم من علم او صناعة ، أو لغة وبيان . ففي مواجهة سحرة مصر الذين بذوا في صناعة السحر كانت آية موسي العصا . وفي مواجهة خبرة

الرومان في الطب كانت آية عيسي ابراء الامراض التي استعصمت على الطب . وفي مواجهة بلاغة العرب كانت آية النبي محمد ﷺ وهي القرآن الكريم .

(٣) العبارة والصياغة :

العبارة التي تحمل فكر الداعية ، ويصب فيها منهجه ، وتعي حروفها وصوتياتها نبضات قلبه ، وهواجس نفسه لها ابلغ الاثر في عملية الدعوة . ونقل الفكر والشعور . وبقدر احكامها وسدادها تؤدي غايتها كما تؤكد حكمة الداعي الذي يحملها .

والعبارة اللغوية تكون من باب الحكمة بقدر ما تحمل من ايجاز يضم اصوله القول . ويرد فضوله . وبقدر ما تأتي نتيجة لفهم ووعي ودراسة بحيث تمتلك نفس المدعو وتأخذ عليه مشاعره وعواطفه . من ذلك هذا الموقف :

يقول فرعون لموسي : ﴿ **فما بال القرون الاولى** ﴾ (طه : ٥١) . فرعون هنا يتساءل عن مصير الاجداد السابقين الذين لم يؤمنوا بمثل ما دعا اليه موسي وكان يمكن لموسي لَوْ جَانبته الحكمة ان يقول : هؤلاء كفروا وضلوا ومصيرهم الى النار لكن منطق الحكمة جنبه هذا الرد الذي يمكن ان يعقد الموقف . واملى عليه قوله : ﴿ **علمها عند ربي في كتاب . لا يضل ربي ولا ينسي** ﴾ (طه : ٥٢) . ويبالغ فرعون في إثارة موسي عليه السلام في اول موقف يلاقيه فيه فيقول : ﴿ **ألم نربك فينا وليدا . ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين** ﴾ (الشعراء : ١٨/١٩)

وتطاوعه حكمته ، فلا يستفزه عبارة الوصف بالكفر ، ولا يخدعه التذكير بالتربية . فيصحح في رفق عبارة فرعون ، ويشير الى خروجه من مصر خائفا حتي أنعم الله عليه بالرسالة : ﴿ **قال : فعلتها اذن وانا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين**﴾ (الشعراء : ٢٠/٢١)

وتبدو حكمة العبارة في موقف آخر ، بصورة رائعة . يقول فرعون : ﴿ **وما رب العالمين**﴾ (الشعراء : ٢٣) . فهو يسأل عن ماهية رب العالمين ، وهو تطاول لا ينبغي ، واجابته على ما سأل ، فيها إقرار لحمقه ، ومجاراة له على بغيه . وهذا أمر لم يفعله موسي عليه السلام وانما اتبع اسلوب الحكيم ، وتلقىٰ فرعون بغير ما يترقب وقدم له اجابة عن غير ما سأل وكأنه يقول له : كان ينبغي لك ان تسأل سؤالا ، يجاب عنه بهذه الاجابة : ﴿ **قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين**﴾ (الشعراء : ٢٤)

وكأن موسىٰ بهذه الاجابة يقول : كان ينبغي لك ان تقول : من رب العالمين؟ ويدرك فرعون ما في جواب موسىٰ من سداد وقوة ، فيقول لمن حوله الا تسمعون ؟ ويستمر موسىٰ في رفق . وعمق في تعريفه بمن لا ينبغي ان يجهله فيقول : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الاولين**﴾ .

ويطير صواب فرعون ، اذ يقول للملأ من حوله : **ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون** . ويظل موسىٰ على حكمته واتزانه فيقول : **رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون** . هذا الحوار في سورة الشعراء من الآيات : ٢٢ ــ ٢٨ .

وفي موقف آخر نرى النبي محمدا عليه الصلاة والسلام يواجه باغراءات كبيرة تضعف امامها اقوى النفوس ليترك طريق الدعوة الى الله . اغروه بالملك والسلطان . واغروه بالمال والثراء . فما وجد ردا أحكم ولا أقوم إلا أن يقرأ لهم آيات ذات تأثير ومغزى كبير من كتاب الحكيم الخبير . قرأ قوله تعالى : ﴿ **حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾ . الآيات .

وانجلى هذا الموقف بعد ان تلا النبي عليه الصلاة والسلام هذه الآيات البينات عن ان الرجل الذي جاء ليقنع الرسول عليه الصلاة والسلام بالعدول عن الرسالة عاد مؤمنا بالرسالة ، مقتنعا بما سمع ، حتي احاطت به عشيرته . وصرفوه مرة اخرى بمؤثرات الجاهلية إلى الضلالة .

إن العبارة الحكيمة هي التي يمتلك بها صاحبها زمام الموقف بحيث لا يستطيع احد لها ردا . ولا يملك لها جوابا . إلا أن يختلق شيئا يتحلل به من حصار الموقف الذي احاطه به الداعية الحكيم .

من ذلك موقف النبي محمد ﷺ على جبل الصفا وقد نجح في جمع بطون قريش من حوله : **أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادي تريد ان تغير عليكم . اكنتم مصدقي** ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذبا . فقال عليه الصلاة والسلام ، وقد امتلك زمام الموقف بقولته الحكيمة : **اني رسول الله اليكم خاصة . والى الناس**

كافة[1] . فما وجدوا عبارة يستطيعون ان يتحللوا بها مما التزموا به . حتي قال ابولهب قولته الباغية ، التي خرجت عن موضوعية الرد . وليس فيها إلا السب والشتم ، لكنها هيأت للقوم المأخوذين بحكمة الدعوة ان ينصرفوا عن الداعية .

ويحدثنا القرآن الكريم عن ابلغ رسالة من رسائل الدعوة الى الله حتي ان المرسل اليه ، وهو ملكة تعبد مع قومها الشمس من دون الله اثنت على مضمون الرسالة ، مما يشهد لها بالحكمة والسداد . فبم اثنت على الرسالة ؟ ﴿ **قالت : يا أيها الملأ اني القي الي كتاب كريم** ﴾ (النمل : ٢٩) . ثم تذكر الآيات النص الكامل للرسالة التي حملها الهدهد الى بلقيس في ارض اليمن : ﴿ **انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلو علي وأتوني مسلمين** ﴾ (النمل : ٣١/٣٠) .. ويشتد على النبي عليه الصلاة والسلام اذى قومه ، وتعظم قسوتهم على من اتبعه فيقول لهم في عتاب الحكيم ، وحكمة المعاتب : **ويح قريش ماذا لو خلوا بيني وبين العرب فان ظهروا علي فقد استراحوا ، وان ظهرت عليهم دخلوا في الاسلام وافرين .**

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير/سورة الشعراء ونصه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدى لبطون قريش حتي اجتمع ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبولهب وقريش ، فقال : أرأيتكم لو أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبولهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾

وتحفل مسيرته عليه الصلاة والسلام على طريق الدعوة بحكم رائعة تفتح مغاليق القلوب وتزيل الغشاوة عن العيون . وتنير جوانب الطريق لأولي الألباب . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« ان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى »[1] .. « الدين النصيحة »[2] . « الظلم ظلمات يوم القيامة »[3] . « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله . وعين باتت تحرس في سبيل الله »[4] .. « الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله . الا وهي القلب »[5] .. « ان من اظلم الظلم ان تجعل لله ندا وهو خلقك »[6] . « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير اصاب ارضا . فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير . واصابت طائفة اخرى امسكت الماء . فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا واصاب اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء . ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا . ولم يقبل هدى الله الذي جئت به »[7] .

---

(١) رواه احمد .
(٢) اخرجه البخاري في كتاب الايمان
(٣) رواه مسلم . واحمد . والدارمي .
(٤) رواه الترمذي
(٥) رواه البخاري .
(٦) رواه البخاري ومسلم والنسائي و الترمذي واحمد .
(٧) رواه البخاري .

(٤) نزاهة العرض :

ان من ابرز مظاهر الحكمة في اسلوب الدعوة العرض النزيه لما يحمله الداعية من افكار . والمقصود بنزاهة العرض ان يقدم الداعي دعوته ، وكأنها ــ وهي الحق الذي لا شك فيه ــ قضية مطروحة للمناقشة .

وابلغ مثل لهذا ان الله سبحانه وتعالى يعلم نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام مطالبته المعارضين بالحجة والبرهان ، ليقنعهم ان دين الله جاء هاديا للعقول ، فلا يمكن ان يسفه من شأنها وليس في دين الله ــ فيما عدا ما يتصل بذات الله ــ قضية تفرض من غير حكمة كريمة أو غاية نبيلة .

فعندما قال بنو اسرائيل : ﴿ **لن يدخل الجنة إلا من كان هودا او نصارى** ﴾ . قال ربنا لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين** ﴾ (البقرة : ١١١)

وعندما قالوا : ﴿ **لن تمسنا النار إلا اياما معدودة** ﴾ قال الله تعالى لنبيه : ﴿ **قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ، ام تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ (البقرة : ٨٠) .

ويعلم القرآن الكريم النبي محمدا ﷺ ــ وهو على الحق الذي لا شك فيه ــ ان يقول لقومه ــ وهم على باطل لا شك فيه ــ ﴿ **وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** ﴾ (سبأ : ٢٤) وفي هذه الآية يصل العرض النزيه الى ارفع المستويات ، ليبعد من تصورهم فكرة التعالي عليهم بان الحق معه وحده . وفيه من ناحية اخرى دعوة الى البحث عن الحق والاستمساك به ايا كان في غير تعصب

أو هوى . والنتيجة ولا شك في جانب الحق الذي يدعو اليه النبي عليه الصلاة والسلام . وكل دعوة ناجحة الى الله يقدمها الداعي مستندة الى ما يعززها من براهين .

من ذلك الرجل الذي جاء من اقصي المدينة ينصح قومه باتباع الرسل . فيقول : ﴿ **اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون** ﴾ (يس : ٢١) . وعندما قال فرعون لموسي : ﴿ **لئن اتبعت الها غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾ قال موسي : ﴿ **اولو جئتك بشيئ مبين ؟** ﴾ . قال فرعون : ﴿ **فأت به ان كنت من الصادقين** ﴾ (الشعراء : ٢٩/٣١) . ففرعون هنا يهدد . وعندما واصل موسي الحكمة ونزاهة العرض اذ لوح بالدليل الذي يملكه مصدقا لما يقول نجح في صرفه عن التهديد وعاد يطالب بالدليل الذي يملكه موسي عليه السلام . .

إن دعوة الحق بما تملك من دعائم الحق . وقواعد المنطق ، واسس الصدق . مطمئنة الى نفسها . ولا تخش اذا عرضت عرضا محايدا ان يفوز عليها غيرها .

وكم نحس بروعة واعجاب عندما نقرأ قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **فان كنت في شك مما انزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ (يونس : ٩٤) . ويقدم القرآن الكريم امثلة كثيرة لنزاهة العرض تهدف الى الاقناع في غير املاء .

يقول تعالى : ﴿ **ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم ساء ما**

يحكمون ﴾ (الجاثية : ٢١) .. ويقول تعالى : ﴿ **افنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار** ﴾ (ص : ٢٨)

في هذين الموضعين يقدم القرآن صورتين للعرض البريء ، يترك التحاكم فيهما للعقول الصريحة ، فلا تملك إلا ان تنفي المساواة .

ويذكر لنا القرآن الكريم التصورات الضالة لقريش نحو النبي محمد عليه الصلاة والسلام ونحو رسالته فيقول تعالى : ﴿ **واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا : ما هذا إلا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا : ما هذا إلا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا إلا سحر مبين** ﴾ (سبأ : ٤٣)

ثم يرد الكتاب العزيز على هذا القصور المنحرف برد متزن ، قائم على حجة بالغة مدعوم ببرهان قوي مقتضاه ان هؤلاء الناس قالوا ما قالوا بوحي من هواهم فلم تسبق لهم دراسة كتب سماوية ، ولا جاءهم رسول من قبله حتي يحكموا بما عندهم من علم على ضلال هذا الرسول وكذب دعوته فيقول تعالى : ﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير** ﴾ (سبأ : ٤٤) ..

ثم يقول لهم في انصاف بالغ : الامر لا يخلو من احتمالين اما ان اكون ضالا ، فلن يحمل النتيجة احد سواي ، واما ان اكون مهتديا فهذا دليل على وحي من عند الله ، لانه لا قبل لي بمثل هذا العلم . ﴿ **قل ان ضللت فانما اضل على نفسي ، وان اهتديت فبما يوحى الي ربي انه سميع قريب** ﴾ (سبأ : ٥٠)

ومن مظاهر العرض النزيه للدعوة تأكيد الداعي للجانب البشري فيه فهو ليس ملكا . ولا يحمل سرا . ولا يملك ضرا . ولا نفعا . وليس بيده خزائن الارض . ولا تصريف الامور . ومن الحكمة البالغة ان يأتي هذا الامر في الكتاب العزيز في صورة أمر من الله لرسوله ليبلغه للناس . يقول الله تعالى :

﴿ **قل لا اقول لكم عندي خزائن الله . ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك . ان اتبع إلا ما يوحى الي . قل : هل يستوي الاعمى والبصير افلا تتفكرون** ﴾ (الانعام : ٥٠) .

وهذه المنفيات الثلاث التي تضمنتها المقولة الاولى في الآية وهي لا يملك خزائن الله . ولا يعلم الغيب . ولا يدعي انه ملك . قد سبق لنوح عليه السلام اول داعية الى الله في تاريخ البشر . ان نفى عن نفسه هذه الثلاث فقال كما حدثنا ربنا في القرآن الكريم :

﴿ **ولا أقول لكم عندي خزائن الله . ولا اعلم الغيب . ولا اقول اني ملك** ﴾ (هود : ٣١) .

ويستمر القرآن الكريم في تأكيد بشرية النبي عليه الصلاة والسلام ويأتي هذا على لسان النبي محمد ﷺ بتكليف من ربه . يقول تعالى : ﴿ **قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد** ﴾ (الكهف : ١١٠) . فهو فضله باصطفائه للرسالة . بل هو بنفسه ينفي انه تميز بعلم الغيب فيقول :

﴿ **قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله . ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ (الاعراف : ١٨٨) .

وما في هذه الآية قمة النزاهة في العرض تأتي على لسان الداعية يدفع بها عن نفسه اي تميز ليس من حقه ، بحيث يكون تأثير قوله راجع الى انه الحق من عند ربه ، وليس لاي سبب آخر .

والآيات التي تؤكد البشرية للرسول عليه الصلاة والسلام وللرسل من قبله كثيرة ومتعددة كلها تؤكد ان الرسل تميزوا بقول الحق الذي تلقوه من لدن حكيم خبير . وهذا التأكيد على لسانهم يعطي كلامهم مزيدا من الثقة والقبول عند اولي الالباب من الناس .

وظل النبي ﷺ يؤكد هذا المعني بين اصحابه . قال عليه الصلاة والسلام لرجل وقف يرتعد امام هيبة منه : **مهلا انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**[1] . كما قال عليه الصلاة والسلام : **لا تطروني كما اطرت النصارى المسيح ابن مريم ، انما انا عبدالله ورسوله فقولوا : عبدالله ورسوله**[2] .

(٥) اثارة النوازع الانسانية التي تخلق الثقة في الداعي :

من مظاهر حكمة الدعوة ان يعمد الداعي الى النوازع الانسانية في جماعته التي يدعوها ، ويذكرهم انتماءاته اليهم وصلاته الوثيقة بهم . فقد يثير فيهم مشاعر القرابة القريبة اذا كان يتحدث في الاسرة أو العشيرة .

واذا كانت الدعوة على مدى اوسع واشمل يمكن ان يحرك الرابطة الانسانية . ويستطيع من خلال اثارة هذه النوازع كلها ان

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة .
(٢) رواه البخاري .

يقنع الناس وذلك لان الاسلام فيه سند لهذه الروابط كلها . وعلم الانسان الوفاء بما تلزمه به هذه الروابط من حقوق . والاسلام في جوهره ما هو إلا مجموعة من الحقوق يطالب المسلم برعايتها . تبدأ بحق الله عليك . وتنتهي بحق الناس اياكان بل بحق الكائنات الحية التي تشاركك الحياة في هذه الدنيا .

والامثلة على حكمة اثارة النوازع . واستثمارها في خلق الثقة بين الداعي ومن يدعوه كثيرة ومتعددة .

يحدثنا القرآن عن دعوة نوح لقومه . وما فيها من اثارة رابطة الدم والنسب بينهم بالحرص على النداء بقوله : « يا قوم » مما يذكر برابط الدم التي هي قوام العلاقة في الاسرة والعشيرة والقبيلة .

يقول تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ نوح . اذ قال لقومه : يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة . ثم اقضوا اليَّ ولا تنظرون** ﴾ (يونس : ٧١) . ويتصدى له قومه بعناد وبغي تصوره الآية : ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادي الرأي . وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ (هود : ٢٧) . فيرد عليهم نوح عليه السلام بهذا الاسلوب الحكيم نفسه : ﴿ **قال يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي . وآتاني رحمة من عنده . فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون . ويا قوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجري إلا على الله** ﴾ (هود : ٢٨ . ٢٩) .

وقد تكون هذه الاثارة الحكيمة عن طريق التعبير بلفظ الاخ ، الذي يفيد اخوة الدم والنسب ، وهذا التعبير التزمه القرآن الكريم في الحديث عن بعض الرسالات أو اكثرها .

يقول تعالى عن دعوة نوح لقومه : ﴿**اذ قال لهم اخوهم نوح : الا تتقون؟ اني لكم رسول امين**﴾ (الشعراء : ١٠٦/١٠٧) .

وفي رسالة هود لقومه عاد يقول تعالى : ﴿**والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ (هود : ٥٠) . ﴿**كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون**﴾ (الشعراء : ١٢٣/١٢٤) .

وفي رسالة صالح لقومه ثمود يقول تعالى : ﴿**والى ثمود اخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ (هود : ٦) . ﴿**كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم اخوهم صالح : الا تتقون**﴾ (الشعراء : ١٤١/١٤٢) .

وفي رسالة لوط الى قومه يقول تعالى : ﴿**كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون؟ اني لكم رسول امين**﴾ (الشعراء : ١٦٠/١٦٢) .

وتأتي رسالة ابراهيم عليه السلام فنلمس هذه الاثارة الواعية في اسلوب الدعوة . يتمثل ذلك وهو يدعو اباه ويقول : ﴿**ياابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا . يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا ابت اني**

اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ (مريم : ٤٢/٤٥) . ففي الحرص على تكرار لفظ ابت في كل نداء اثارة لعاطفة الابوة لتتلقىٰ بانصاف وهدوء ما يفضي به الابن الصالح لابيه الضال .

وفي رسالة موسىٰ عليه السلام وهي ذات اهداف . بعضها يتجه الى فرعون ، والاثارة فيه كانت من جانب فرعون ، محاولة يائسة منه لصرف موسىٰ عن رسالته الكبيرة ، اذ يقول له كما قص علينا ربنا : ﴿ **الم نربك فينا وليدا . ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾** (الشعراء : ١٨) ، فذكره برابطة التربية . وهي ذات شأن ، كما ذكره بالمواطنة فترة من الوقت . ولها اثرها في نفس الانسان . لكن الاثارة لم تفلح مع موسي عليه السلام لان اي رابطة مهما كانت قوية . لا تصرف المؤمن الواعي عن رسالته وهدفه . وجانب من الرسالة يتجه الى قومه بني اسرائيل وفيه يقول لهم : ﴿ **يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم . فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم للفاسقين ﴾** (الصف : ٥)

وجاء عيسي عليه السلام من بعد موسي الى بني اسرائيل يؤكد لهم ارتباطه برسالة موسي عليه السلام حتي لا يقفوا وقفة عداء لرسالته كما يبشرهم بالرسالة الخاتمة . يقول تعالى : ﴿ **واذ قال عيسي ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم . مصدقا لما بين يدي من التوراة . ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾** (الصف : ٦)

ثم تأتي رسالة النبي عليه الصلاة والسلام . وهو يحمل انتمائية

قوية وعميقة الى قومه ، يؤكدها ويعتز بها ويحرص على هدايتهم لاجلها . ويعز عليه بغيهم وعنادهم عندما يبغون ويصدون عن سبيل الله . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « **ان الله اصطفىٰ من ابراهيم اسماعيل ، واصطفىٰ من اسماعيل كنانه ، واصطفىٰ من كنانة قريشا ، واصطفاني من قريش فانا خيار من خيار** »[1] . وكان يعتز بميلاده في مكة وبرضاعته في صحراء بني سعد .

واكد القرآن الكريم هذه في مواطن عدة ومنها هذه الآية ﴿ **لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم . بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (التوبة : ١٢٨) . فهو عربي ، حريص على قومه العرب الذين اراد الله لهم ان يكونوا أمة الدعوة للعالم كله شرقه وغربه ويعز عليه عنتهم وعنادهم .

قال ربنا تبارك وتعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام ، مشيرا الى اثر هذا العامل في دعم الثقة بالداعية : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (الشعراء : ٢١٤) . فجمع النبي عليه الصلاة والسلام عشيرته القريبة منه ، وقال لهم قولة اثار فيها كل النوازع التي تخلق ثقتهم فيه ، قال : **ان الرائد لا يكذب اهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم**[2] .

ففي هذا التقديم الرائع من اثارة النوازع والروابط ، ما يقطع سبيل الشك والارتياب في نفوس المعتدلين . كما يبدو ذلك في

---

(١) راجع سيرة ابن هشام .
(٢) راجع سيرة ابن هشام .

حرصه الرائع على هدايتهم ، ومتابعتهم في مجالسهم ، وخفضه الجناح لهم ، وغضه عن هفواتهم واخطائهم . يؤذونه ، ويضطهدون اصحابه فيقول : **اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون** . يعرض عليه عذابهم والانتقام منهم فيقول : **عسي الله ان يخرج من اصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئا** .

والذي يبعث على العجب والاعجاب ان ربنا تبارك وتعالى يشفق عليه مما يعاني منه من شقاء ومشقة من اجل حملهم على الهداية فيقول له : ﴿ **ما انزلنا عليك القرآن لتشقي . إلا تذكرة لمن يخشي** ﴾ . (طه : ٢/٣) .. ﴿ **انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر** ﴾ . (الغاشية : ٢٢) .. ﴿ **ان انت الا نذير** ﴾ . (فاطر : ٢٣) .

ثم يؤكد له القرآن الكريم ان نوازع الرحمة التي نجحت في تحريك النوازع الكريمة في قومه كانت عاملا لانتصار دعوته :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم . واستغفر لهم وشاورهم في الأمر** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وقد اكد لهم في موقف من مواقفه ان نوازع القرابة التي اثارها فيهم لخلق الثقة وقبول الدعوة لن تفيدهم شيئا اذا اصروا على الكفر والضلال . ولاجل ذلك قال لهم : « **ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** »[1] . كما قال لهم : « **لا يأتيني الناس بالاعمال وتأتوني**

---

(١) ابو داود والترمذي ، وابن ماجه واحمد ، والدارمي .

بالاحساب والانساب »[1] .

كما جمع قريشا وقال لهم : **اشتروا انفسكم من الله لا اغني عنكم من الله شيئا . يا عباس عم محمد ، اعمل فاني لا اغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة محمد . اعملي فاني لا اغني عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت واعملي فاني لا اغني عنك من الله شيئا**[2] .

وفيما قصه القرآن الكريم من اخبار نصح الرجل المؤمن لقومه آل فرعون ما يشير الى ان الرجل استنفذ كل حيلة من اجل تحريك مشاعر قومه الذين ضلوا وهو يقول لهم : **يا قوم** يكررها في كل موقف وكل مقال . راجع سورة المؤمن أو سورة غافر .

(٦) الجمهور الذي توجه اليه الدعوة :

ونعني بهذا مظاهر الحكمة الداعية والدراسة الجادة والدقيقة لمن يدعوهم ومعرفة خصائصهم النفسية والفكرية . حتي يكون اسلوب الدعوة ملائما لهم ، ولا تكون هناك عقبة ما في اسلوب الدعوة تحول بين القوم وبين قبولها .

وقد اشرنا في حديثنا عن عنصر الزمن ، والبيئة المكانية ، وعبارة الداعية الى ما يؤكد اهمية دراسة الجمهور المعني بالدعوة .

وقد قرر النبي عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ : « **امرت ان اخاطب الناس على قدر عقولهم** »[3] .

---

(١) روى البخاري حديثا بهذا المعني « يا معشر قريش اشتروا انفسكم من الله لا اغني عنكم من الله شيئا » .

(٢) رواه البخاري .

(٣) ورد هذا الاثر في كتب السير .

وهو من اسمى القواعد التربوية . ومن ركائز الدعوة القومية . وتنفيذه والامتثال له آية دالة على حكمة الداعية وسداده . والقرآن الكريم راعى المدارك العقلية للناس الذين عاشوا عصر نزوله . وذلك ببلاغته الفائقة . لان القوم كانوا مثلا عظيما في البلاغة . وكذلك باجماله بعض القضايا العلمية التي لو فصلت عجزوا عن استيعابها . كما لا يمنع اجمالها من ادراك ما فيها من روائع العلم والمعرفة .

قال تعالى بعد الحديث عن وسائل الحمل والتوصيل التي عرفها الانسان ، وهي الخيل والبغال والحمير : ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ . دون ان يتحدث عن المكتشفات التي سيعرفها الانسان فيما بعد كالباخرة والطائرة والسفينة الفضائية . وان كان هذا كله لا يخرج عن دائرة الآية .

فالداعي الى الله في جمهرة من المثقفين واهل العلم لابد له ان يتخير الاسلوب وينتقي العبارة . ويحرص على صحة المادة التي يقدمها قائمة على حجج وبراهين تقنع العقل بلا مغالطة .

والذين لم يؤتوا نصيبهم من العلم والمعرفة وهم العامة يحتاجون الى بساطة الاسلوب . وتيسير المادة المقدمة لهم . وضرب الامثلة من واقع حياتهم وسوق القصص الحق الذي يحفل بالدروس والمواعظ والعبر .

والذين يحملون عبء الدعوة الى الاسلام خارج بلاد الاسلام . وبين شعوب لا تعرفه . أو تدين بغيره يحملون عبئا اكبر في عملية الاقناع . تتجه الى العقل . وشواهد العلم . وظهواهر

الحياة . ومن غير المفيد ان نستدل لهم بالقرآن والسنة الصحيحة الا لنؤكد لهم ان آيات العلم وراء آيات الكتاب العزيز .

والدعوة الى الاسلام بين سكان الغابات والمراعي ، والامم البدائية لابد ان تقترن بما يؤكد ان هذه الدعوة وراءها الامن والغـذاء .

ومخالفة الاسلوب الملائم لأي جمهور من هؤلاء هو في حقيقته مخالفة للحكمة ومجانبة للصواب . وكم يأسي الانسان كثيرا اذا سمع واعظا يتحدث عن الخمر وحرمتها واضرارها بين قوم لا يتيسر لهم الغذاء الاساسي . وان يتحدث عن مانعي الزكاة بين قوم فقراء . وان يصف جرم تاركي الصلاة بين اناس يحرصون عليها . وان يتحدث عن الجن واحوالهم في مجتمع يجهل الكثير عن عالمه المشهود .

ان تخير العبارة حكمة ، وتخير الموضوع الملائم حكمة . والحكمة أقوم اساس للدعوة الناضجة . وقد قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (النحل : ١٢٥) .

(٢) الموعظة الحسنة

هي الدعامة الثانية التي ينبغي ان يقوم عليها اسلوب الدعوة في الاسلام كما بينه القرآن الكريم .

والموعظة هي الكلمات الطيبات التي تحرك القلب والمشاعر ، وتهز الوجدان والحس .

وتكون الموعظة حسنة طالما يتوخى صاحبها الرفق . ويعمد الى لين القول . ويتجنب ما يؤلم ويؤذي من الالفاظ النابية . والعبارة السيئة مع الحفاظ التام على الحقيقة . والبعد عن الرياء والمداهنة .

والحقيقة واحدة . بيد انها تقع على لسان من يسيئ التعبير عنها فينفر الناس منها . أو تقع على لسان واعظ حسن الموعظة . فيجمع القلوب حولها . كما قال الشاعر الحكيم :

تقول هذا لعاب النحل تمدحه | وان تشأ قلت : ذا قيئ الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما | والحق قد يعتريه سوء تعبير

واذا تحدثنا عن الموعظة الحسنة فإن القرآن الكريم يأتي في مقدمة المواعظ الحسان . ولذا قال ربنا تبارك وتعالى في وصف كتابه : ﴿ **يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور . وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ (يونس : ٥٧) .

وحسن الموعظة يتحقق بامور :

١ ــ القول اللين . المتسم بالرفق . الذي يتجنب فيه صاحبه الغلظة والفظاظة . وقسوة العبارة . ولاسيما في مواجهة علية القوم وذوي المكانة فيهم . فلا يحقرهم . ولا يسفه من شأنهم . وبهذا الاسلوب يمتلك زمام قلوبهم . ويضع فيها ما يريد من آراء وافكار .

انظر الى شعيب عليه السلام . ارسله الله الى قومه مدين : ﴿ **قال : يا قوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره . اني اراكم بخير . واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ (هود : ٨٤) .

ويسير شعيب على درب الموعظة الحسنة ، يحذرهم من آفة التطفيف ويطالبهم بالوفاء بالمكيال والميزان ثم يقول لهم في رفق : ﴿ **بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين . وما انا عليكم بحفيظ** ﴾ (هود : ٨٦) . وتكشف الآيات عن ثقة قومه فيه ، وفي اعتداله حتي انهم يعاتبونه اذ يضايقهم في اعرافهم الخاصة بهم ثم يقولون : ﴿ **انك لانت الحليم الرشيد** ﴾ . ويكون رده عليهم :

﴿ **قال : يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ان اريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انيب** ﴾ (هود : ٨٨) .

ويكلف ربنا تبارك وتعالى نبيه موسىٰ بالذهاب إلى فرعون . ومعه اخاه هارون ردءا يصدقه . ثم ينصحهم جل شأنه ، وهو القوي القادر الذي لا يعجزه شئ في الارض ولا في السماء ، بلين القول ، لانه يغزو القلب ويبعث على التذكر والخشية فيقول تعالى : ﴿ **اذهبا إلى فرعون انه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشي** ﴾ (طه : ٤٣/٤٤) .

بل اننا نجد ان الله سبحانه وتعالى يعلمهما ، ماذا يقولان ، وكأنه تبارك وتعالى يقدم لهما مثالا للموعظة الحسنة ، فيقول تعالى : ﴿ **فأتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ، ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ (طه : ٤٧) .

في هذه العبارة من ملامح القول الحسن : التعبير بلفظ الرب

الذي يشعر بالتربية . ويحرك فرعون الى الانصياع لمن رباه . كما يطالب هو شعبه في مصر بحق التربية والطاعة .. تقديم الدليل المؤيد لرسالته .. تقديم التحية الدالة على الترفق . مع الحذر الذي يباعدها عن المداهنة فهي تحية في رفق ومع هذا لا ينال فرعون منها شيئا .

وفي سورة اخرى نجد موسىٰ في دعوته يقول كما علمه الله ﴿ **اذهب الى فرعون انه طغى . فقل : هل لك الى ان تزكى** ﴾ (النازعات : ١٧/١٨) .

فالحق الذي لا شك فيه يقدم هنا على انه مجرد قضية تعرض ليس فيها الزام . وهذا هو قمة الترفق في عرض الحق والدعوة اليه .

وقد اشار القرآن الكريم الى ما اثمره القول اللين من نجاح دعوة النبي محمد ﷺ وتأثيرها في الناس . فيقول تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

٢ ـ فصاحة العبارة . وبعدها عن الالفاظ المستكرهة والنابية سواء من الناحية الصوتية أو المعنوية .

فليس من حسن الموعظة التقعر في العبارة . والتماس الالفاظ الغامضة والعبارات المبهمة التي يقصد بها صاحبها التعالي على الناس وادعاء العلم .

وقد عد النبي عليه الصلاة والسلام هذا النمط من الكلام مجافيا للخلق القويم . فضلا عن مجافاته للموعظة الحسنة . اذ يقول

ﷺ : « **الا انبئكم باحبكم اليّ واقربكم مني مجالس يوم القيامة احاسنكم اخلاقا الموطئون اكتافا . الذين يألفون ويؤلفون ، وان ابغضكم اليّ وابعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون ، المتفيهقون ، المتشدقون** »[1] .

والقول الحسن : يحمل المعني الكريم ، والعلاج القويم .

فني عهد الله تعالى وميثاقه مع بني اسرائيل نجد القول الحسن في دعوة الناس الى الله احد بنود هذا الميثاق . يقول تعالى : ﴿ **واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل . لا تعبدون إلا الله وبالوالدين احسانا ، وذي القربي واليتامى والمساكين . وقولوا للناس حسنا** ﴾ (البقرة : ٨٣) . كما يقول تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا** ﴾ (الاحزاب : ٧٠) .

وكأن القول السديد سمة لازمة للمؤمن الصادق . واحسن الناس قولا هم الدعاة المسلمون المخلصون . يقول جل شأنه : ﴿ **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين** ﴾ (فصلت : ٣٣) .

ومن عبارات الدعوة الفصيحة لفظا ، القويمة معني ، قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم . دينا قيما ، ملة ابراهيم حنيفا . وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك امرت وانا اول المسلمين** ﴾ (الانعام : ١٦١/١٦٣) .

---

(١) رواه البخري والترمذي واحمد .

٣ ـ والموعظة الحسنة يترفع صاحبها عن فضول القول ، ولغو الكلام ويدفع السيئة بقول حسن ، يكفكف من غلواء المسيئ ، ويضعه موضع الملوم . ومن نصائح القرآن الكريم للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ . (فصلت : ٣٤) .
﴿ **ادفع بالتي هي احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون** ﴾ (المؤمنون : ٩٦) .

وقد التزم الرسل الكرام ، وهم من خيرة الدعاة هذا المنهج . فنوح عليه السلام يدعو قومه الى الله ويكون ردهم عليه كما حكاه الله ﴿ **قال الملأ من قومه : انا لنراك في ضلال مبين** ﴾ (الاعراف : ٦٠) . ويرد نوح على هذه الاساءة البالغة بقوله : ﴿**قال : يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم**﴾ (الاعراف : ٦٢/٦١)

وهود عليه السلام يدعو قومه الى الله بعبارة بالغة الرفق ، فيرد عليه قومه ردا بذيئا قاسيا : ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك في سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين** ﴾ (الاعراف : ٦٦) . ولا يخرج هود عن رفقه ، فيرد بما هو احسن : ﴿ **قال : يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين . ابلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح امين** ﴾ (الاعراف : ٦٨) .

٤ ـ الموعظة الحسنة ، ينأى صاحبها عن المغالطة ، ويرد على اصوات البغي بالدعوة الى التعقل والتفكير بدلا من المسارعة الى

الشتم والاتهام .

ولما كان اهل مكة يتلقون دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، بما تحمل من اسباب الاقناع . وقوة البرهان ــ بالصفير والتصفيق ، قصدا الى حجب الحق عن الاذان ، والحيلولة بينه وبين القلوب رأينا ان الله تعالى يوجه النبي عليه الصلاة والسلام الى دعوتهم برفق الى التعقل والاناة والتأمل فيما يقول ، وبعد ذلك يحكمون على رسولهم الكريم اهو عاقل أم مجنون .

يقول تعالى : ﴿ **قل : انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ (سبأ : ٤٦) .

٥ ــ الموعظة الحسنة توصل الى التأثير العاطفي بجانب الاقناع العقلي وعندما تكون الموعظة في مجتمع اسلامي . فان الاقناع العقلي بالقضايا المعروفة متوافر ، وما بقي إلا تحريك العاطفة ، ليكون فيها هزة تزيل غشاوات الغفلة .

وفي مقام الجدل للاقناع برأي معين . لا تستحسن الاثارة ، اذ المطلوب في هذه الحالة الحجة والبرهان .

يحكي العرباض بن سارية رضي الله عنه احدى مواعظ الرسول عليه الصلاة والسلام وما بلغته من تأثير عاطفي ، فيقول : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب . وذرفت منها العيون . فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع . فاوصنا قال : «**اوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وان تأمر عليكم عبد ، فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كبيرا . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء**

الراشدين من بعدي . عضوا عليها بالنواجذ . واياكم ومحدثات الامور . فان كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة »[١] .

وكأن الموعظة اخافتهم . فاشفقوا على انفسهم . فالتمسوا وصية من رسول الله ﷺ تعينهم على مواجهة ما خافوا منه .

وبتأثير احدى مواعظ رسول الله ﷺ تصور نفر من المسلمين المخلصين ان الخلاص من ويلات يوم القيامة يتمثل في العكوف على العبادة . والاعراض تماما عن الدنيا . واجتمع على ابن ابي طالب وابو الدرداء . وعبدالله بن عمرو بن العاص . وعثمان بن مظعون . في بيت عثمان بن مظعون . وقد عزموا على ان يصوموا النهار ولا يفطروا ويقوموا الليل ولا يناموا . ويعتزلوا النساء .

ويصل الى علم رسول الله ﷺ ما عزم عليه هؤلاء النفر فيقاوم هذا التفكير بشدة . لانه تصور يعارض الاسلام . وقال **بلغني ان فلانا وفلانا اجتمعوا في بيت ابن مظعون . وقد عزموا على ان يعملوا كذا وكذا . اما انا فاني اصوم وافطر واقوم وارقد وآتي النساء . هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني**[٢] .

وان اعظم ما في القول الحسن انه سد منيع دون نزعات الشيطان ونزواته التي يلقيها بين المؤمنين . فيثير الخصومات . ويخلق العداوات ويقطع الصلات . ويشيع بين الاحباب الضغينة

(١) رواه ابوداود والترمذي وابن ماجه واحمد والدارمي .
(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي واحمد والدارمي .

والبغضاء . فالكلمة الطيبة تفسد عليه خطته ، وترد كيده إلى نحره .

ومن أجل هذا يقول رب العالمين : ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم . إن الشيطان كان للانسان عدواً مبينا**﴾ . (الاسراء : ٥٣) .

فاذا كان هذا هو شأن القول الحسن يصون المجتمع من التفكك ويحمي وحدته فما بالك به في مقام الدعوة إلى الله ، إن الداعية يصل به إلى قلوب الناس . ولو كانوا مخالفين له في الرأى ــ حيث يعجز عن ذلك أى أسلوب سواه .

(٣) الجدل بالتي هي أحسن

من أبرز عناصر السداد في أسلوب الدعوة الجدل بالتي هي أحسن كما جاء في آية النحل التي تعد ايجازاً لدستور الدعوة في الاسلام .

والجدل هو الحوار ، وتبادل الأدلة والبراهين بين الأطراف دعماً لما يراه كل منهما من فكر . وما يعتقده من رأى .

ويكون الجدل حسناً طالما كان نزيهاً يعف عن المغالطة ، وينأى عن المكابرة ، ويتجرد المتجادلان من الرغبة في الانتصار للنفس بالحق أو الباطل .

ويبدو حسن الجدل في موضوعيته ، وبعده عن الانفعال ، والقضايا التافهة التي لا تستحق بذل الجهد . وضياع الوقت ، والاسراف في القول .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الجدل في عدة مواضع .

منها هذه الآية التي تعد كما قلت دستوراً للدعوة : ﴿ **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (النحل : ١٢٥) .

وقوله تعالى : ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم**﴾ . (العنكبوت : ٤٦) .

وهي توصي النبي عليه الصلاة والسلام بالجدل الحسن في حوار أهل الكتاب . وهؤلاء ينبغي أن تتجه الدعوة لهم بأسلوب يختلف عن سواه .

والجدل الحسن بعناصره التي أشرنا إليها من أصلح الوسائل لهم لأنهم ذوو خبرة ، ولديهم معرفة بالوحي ورسالات السماء . ولهم ايمان بالتوراة والانجيل . والجدل الحسن بما فيه من موضوعية يحسم الخلاف معهم .

وعندما يختلفون مع الرسول ﷺ في الحلال والحرام من الطعام والشراب في التوراة يقول لهم : ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون**﴾ . (آل عمران : ٩٣ . ٩٤) .

وفي جدله الحسن معهم ـ كما يحكيه القرآن ـ يعرض قضايا حاسمة لا يختلف عليها أحد . كما تكشف عن سمو الدعوة . وتنزهها من التعصب أو الاعتداد بالرأى . فيقول تعالى : ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلاّ الله . ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا** :

اشهدوا بانا مسلمون﴾ . (آل عمران : ٦٤) . كما يضعهم أمام واقع ديني واعتقادي لا يستطيعون الفكاك عنه . يقول تعالى : **﴿قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتي تقيموا التوراة والأنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾** . (المائدة : ٦٨) . وحاورهم في قضية الأماني التي أمعنوا في التعلق بها ، ورد عليهم بمنطق هادىء ملزم ، وهذا هو الحوار كما علمه ربنا تبارك وتعالى لنبيه في القرآن الكريم .

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . (البقرة : ١١١ ، ١١٢) .

ومن الظالمون الذى استثنتهم الآية ؟

قالت الآية التي تدعو إلى الجدل الحسن مع أهل الكتاب **﴿إلاّ الذين ظلموا منهم﴾** ومعني هذا إن هناك ظالمين يصرفون الجدل عن وجهه الصحيح ويركبون متن الشطط حتي لا يوصل الحوار إلى الحق . ففي موضوع تحويل القبلة اتهموا ولم يجادلوا جدلا علميا . قالوا : (**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ؟) ووراء هذا التساؤل ما وراءه من ألوان الاتهام . وكأنهم يعدون التحول عن بيت المقدس خروج عن الايمان ، وانحراف عن البر .

ويؤمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحاورهم على هذا النحو **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** . (البقرة : ١٤٢) .

ولما لم تفد معهم المحاورة الهادفة بين ربنا تبارك وتعالى لنبيه أن الجدل مع الظالم لا يوصل إلى الحق ﴿**ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك . وما أنت بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض**﴾ . (البقرة : ١٤٥) .

ومن مظاهر تحويلهم الجدل عن مساره الحسن أن يحولوا الأنظار عن جوهر القضية إلى أمر هامشي ، أو غير ذي بال .

فقصة أهل الكهف فيها موعظة كبيرة في مجال الحفاظ على العقيدة مهما كلف هذا الحفاظ من تعب ومشقة . ويأتي بعض أهل الكتاب ليضعوا هذا الأمر جانباً ليثيروا قضية : كم عدد هؤلاء الفتية ؟ وتأتي نصيحة رب العالمين ، يكشف فيها جانب الحق لرسوله يقول تعالى : ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم . ويقولون خمسة سادسهم كلبهم . رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلاّ قليل . فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا**﴾ (الكهف : ٢٢)

والمراء الظاهر الذي سمح لرسول الله ﷺ في شيء منه هو ما يكون في قضية واضحة ملموسة تقع تحت ادراك الحس أو في دائرة العلم .

والمراء بصفة عامة مذموم . لأنه لون من الجدل يغلب عليه سلطان الهوى والرغبة في الانتصار . واولى بالداعية أن يعف عنه ، والا يطمس الحق الذي يدعو إليه في غباره .

والدعوة إلى الجدل الحسن لم تكن مقصورة على أهل الكتاب بل كانت هى القضية الأساسية في دعوة العرب الذين كانوا هم

الحقل الأول لرسالة الاسلام التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذا كانت العنصر الثالث في دستور الدعوة الذي علم الله تعالى نبيه إياه .

والعرب الذين أرسل فيهم ، ومنهم رسول الله ﷺ لم يكونوا أمة مراء ، ولم يكن في طبعهم اللجاج ، أو المغالطة الفكرية وإنما كان داؤهم لون من الكبرياء والاعتداد بالنفس ، يدفعهم إلى الصخب ، ومحاولة التشويش على صوت الدعوة . ولذا كان من توجيهات الله تبارك وتعالى لهم ليمنحوا أنفسهم فرصة التفهم والاستبانة ، فيقول لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثني وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد**﴾ (سبأ : ٤٦) .

فالقرآن الكريم يدعوهم إلى الجدل الفردي ، فهو أدني إلى التعقل وأقرب إلى الحكمة ، وأجدر بأن يوصل إلى الغاية ، أما الجماعية في الجدل وفي الحوار فهي أدني إلى الحمق والسفه ، ولن يصل معها المجادل إلى حق .

فبواعث الجدل عند العرب لم تتعد دائرة النعرة القبلية والانخداع بقيم الدنيا ، وتحكيمها في المفاضلة بين الناس . وبالحوار الحسن يردهم القرآن الكريم برفق إلى الفكر الصحيح . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين . قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ،**

إلاّ من آمن وعمل صالحاً . فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ (سبأ : ٣٥/٣٧)

إن الجدل في دائرة الحق حسن لا غبار عليه . وقد قدم القرآن الكريم صوراً فيه . يقول تعالى : **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . والله يسمع تحاوركما . إن الله سميع بصير﴾** . (المجادلة : ١) فهذه المرأة التي تظلمت من زوجها الذي ظاهر منها ، وتسمع من رسول الله ﷺ حكما اجتهاديا لا يرضيها . فتجأر بالشكوى إلى ربها قائلة : إن لى صبية صغارا لو ضممتهم إلى جاعوا ، ولو أخذهم أبوهم ضاعوا .. وينزل التشريع الحكيم من لدن رب العالمين . يلم شمل الأسرة ويعاقب الرجل المظاهر بكفارة يلتزم بها . ويصف المرأة بأنها جادلت . لكن لم ينتقد جدالها . لأنه لم يخرج عن دائرة الأدب واطار الحق الذي ينشده المخلصون .[1]

وفي وصف يوم القيامة يقول ربنا تبارك وتعالى : **﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** . (النحل : ١١١)

وجدال الانسان عن نفسه حسن مادام لا يغالط ولا يماري .

ولابراهيم عليه السلام بابوته البارة الرحيمة موقف . فقد جاءته الملائكة ، وقدم لهم طعاماً ، فامتنعوا أن يمدوا أيديهم إليه ، فنكرهم وتوجس خيفة . ولما علم حقيقتهم ، والمهمة التي جاءوا من

---

(١) راجع تفسير القرطبي والكشاف ، وابن كثير ، سورة المجادلة .

من أجلها ذهب عنه الروع ، وبشروه باسحاق .جادل الرسل في عذاب قوم لوط ، وكأنه يريد بمنطق الرحمة الحانية ـ أن يرجأ عذابهم أملا في توبتهم ويسمع إبراهيم تحذيراً شديداً من هذا الجدل الذي يخرج عن دائرة الحق إلى الشفاعة غير المقبولة أو تعطيل الحدود .

يقول تعالى : ﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾ (هود : ٧٤/٧٦)

إن المتتبع لرسالات الرسل عليهم السلام يجد أمثلة وضاءة للجدل الحسن تفسد على المغالط مغالطته . وتوقف المتكبر المعاند عند حده واصحاب الأهواء واللجاج يضعهم الجدل الحسن في موقف حرج لا يملكون معه الا الانصياع .

فاذا استبد بالنفوس البغي فلن تفيدها النذر ، ولا يؤمنوا حتي يروا العذاب الأليم ، كما فعل قوم نوح مع نوح ، إذ استنفد معهم كل حيلة ومع ذلك انتهى بهم الأمر إلى أن قالوا : ﴿**يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾ . (هود : ٣٢) .

وإذا كان القرآن الكريم من خلال قصصه الحق قدم ألواناً من الحوار الدقيق والجدل الحسن فاننا نتخير هنا مثالا قرآنياً للجدل الحسن .

رجلان من الناس كل منهما يمثل صنفاً ، له معتقداته وافكاره .

أولها أوتي مالا وثراء . وليس له ركيزة من الايمان الصادق والوعي الصحيح . فهو يقيس الفضل بمقياس الثراء .وثانيهما : ليس له ماللأول من ثراء . لكنه يملك الفهم الواعي الذي قصر عنه ايمان الأول . وتحاورا فيما يعتقدان . وعرض القرآن الكريم لنا هذا الحوار . يقول تعالى :

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب . وحففناهما بنخل . وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها . ولم تظلم منه شيئاً . وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره . انا أكثر منك مالاً وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لاجدن خيراً منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا . ولو لا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله إن تَرَنِ انا أقل منك مالا وولدا . فعسي ربي أن يُؤتينِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء . فتصبح صعيداً زلفا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . واحيط بثمره ...﴾ (الكهف : ٣٢/٤٢)

ونظرة لهذا المثل القرآني يتبين لنا معالم الحسن والاستقامة في هذا الحوار كما يبدو من ناحية أخرى جنوح الجدل إلى دائرة المراء الباطل .

فأولها : قدم في جدله عدة قضايا باطلة . كما قدم مجموعة من

المفاهيم الفاسدة .

* منها التباهي بكثرة المال والولد .

* تصوره الخلود لجنتيه .

* استبعاده ليوم القيامة .

* وعلى فرض وقوع الأمر البعيد في تقريره ، فانه تصور ـ مخطئاً ـ أن مقاييس الآخرة ، هي نفس المقاييس الفاسدة في الدنيا .

وثانيهما : كان على النقيض تماماً . إذ تحس في جدله هدوءً واتزاناً وموضوعية .

* وذلك بأنه كشف لصاحبه صراحة عن المستوى الذي هبط إليه تفكيره واودى به إلى الكفر بحقائق لا تنكر .

* وفي خلال ذلك أشعره بحماقة تفكيره ، إذ ذكره بمراحل خلقه وتكوينه .

* ضرب له المثل بعقيدته التي أخلص فيها عبوديته لله تعالى .

* نبهه إلى ما كان ينبغي له من شكر النعمة ، ومنهج العرفان .

* حذره من مغبة الجحود . وكيف يحيل النعم إلى نقم .

* المح له أن اليسر والعسر ظواهر دنيوية غير مستقرة ، يقدرها العليم الخبير بحكمته ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

إنه مثل قرآني يصف لنا إلى أى مدى ينجح الجدل الحسن في صد عواصف البغي ، والوقوف في وجه الفكر الجامح ، وازالة الغشاوة عن العقول الضالة .

إن قضية دعوة الحق تخسر كثيراً بمنهج المراء ، إذ تتيح الفرصة

للمبطلين أن يلقوا بما عندهم من أفكار باطلة . وقضايا عشوائية . وحجج لمجرد الاثارة النفسية والحق لا يجد طريقه الا في استنارة ووضوح واتزان .

٤ ـ السير في الأرض

السير في الأرض منهج قرآني فريد في التذكير والدعوة . تميز به القرآن الكريم . ويقوم على ركائز أساسية مما طبعت عليه النفس الانسانية .

فالنفس الانسانية تنتابها الغفلة . ويطويها ــ أحياناً ــ النسيان وهي لهذا في حاجة إلى التذكير والتحذير . واثارة الانتباه إلى آيات الله في الأرض والسموات .

والنفس الانسانية تشدها التجربة . ويستهويها الواقع الحي كما تتأثر كثيراً بحوادث التاريخ ، وسير الماضي ومصارع السابقين .

ومنهج السير في الأرض يحرك النفس خطوات نحو الحق . وشطر الصواب وله وسائل شتي .

١ ـ النظر في ملكوت السموات والأرض :

يستجلي به الانسان عظمة القادر . وابداع الخالق ، واحكام الصانع وكأن الانسان مع كل نظرة واعية ، وفكرة متأملة يسمع صوتاً يهزه من أعماقه ﴿**هذا خلق الله . فأروني ماذا خلق الذين من دونه**﴾ . (لقمان : ١١)

ولذا نبه القرآن الكريم إلى أنه سيظل وراء المتبلدين يستحثهم

ووراء الغافلين يوقظهم ، ومع الجاحدين يرد عنهم ، وفي الكون من آيات الله التي كشف عنها القرآن الكريم ما هو كفيل بتحقيق ذلك كله . يقول تعالى : **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾** . (فصلت : ٥٤) فدعا إلى النظر في النفس نظرة موجزة شاملة . يقول تعالى : **﴿وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾** . (الذاريات : ٢١/٢٠) وجاءت الدعوة إلى هذا مفصلة في هذه الآيات . قوله تعالى : **﴿ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة﴾** (البلد : ١١/٨)

وقوله تعالى : **﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً . فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** (المؤمنون : ١٤/١٢)

وقال تعالى : **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** . (النحل : ٧٨) .

بل إن آيات القرآن الكريم دعت إلى التأمل في الأطوار الدقيقة التي يمر بها الانسان جنيناً في بطن أمه . فقال تعالى : **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم ، خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلاّ هو فاني تصرفون﴾** . (الزمر : ٦) .

ودعا القرآن الكريم إلى نظرة شاملة في ملكوت السموات والأرض . فقال تعالى : **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض ،**

وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ . (يونس : ١٠١) .

كما جاءت الدعوة إلى روائع خلق الله في السموات والأرض . مفصلة في هذه الآيات .

يقول تعالى : ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها . وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب . وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره . وما عملته أيديهم افلا يشكرون ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر . ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾** (يس : ٣٣/٤١)

وهذه الآيات من سورة (ق) تشد النظر إلى ظواهر أخرى تبعث اليقين في النفس بمعتقدات يرتاب فيها الانسان . فيقول ربنا تبارك وتعالى للانسان المرتاب في قضية البعث : ﴿**افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها . والقينا فيها رواسي . وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾** . (ق : ٦/١١) .

وتناسق الخلق . والنمطية الرتيبة في الصنع آية تدعو إلى اليقين .

يقول تبارك وتعالى : ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقا . ما ترى**

في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ .
(الملك : ٣/٤)

ويقدم القرآن الكريم من بديع الصنع وروائع الخلق ما يدعو إلى اليقين ، ويثير التفكير ، ويحرك العقل في آيات ثلاث متوالية من سورة الرعد .

يقول تعالى : **﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات . لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان . يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .**
(الرعد : ٢/٤) .

إن القرآن الكريم يحرك همم أولى الألباب في آيات شتي نحو السموات والأرض لاستنباط ما فيهما من عبر كاشفة لحقائق الايمان ، داعية إلى التذكر المستمر لرب هذا الوجود ، والاسترشاد بهداه . يقول تعالى : **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك فقنا عذاب النار﴾**

(آل عمران : ١٩٠/١٩١)

(٢) التذكير بمصارع أهل البغي والطغيان :

لون من ألوان السير في الأرض . يمنح النفس الجامحة قدراً كبيراً من الزجر . ويلوي عنانها الشرس صوب السداد . والاستقامة .

فاذا كان النظر في آيات الله يفتح النوافذ أمام البصائر الواعية على حقائق الايمان الصحيح فان هذا التذكير بمصائر السابقين يقف سداً منيعاً دون شطط النفس . وانحرافها . إذ يضع أمامها صورة أليمة لما عسي أن تنتهي إليها لو استمرت على طريقها الذي تسير عليه .

وقد عرض القرآن الكريم صوراً متعددة . متنوعة لهذا التذكير . فهناك أقوياء لم تمنعهم قوتهم من عذاب الله . وهناك أصحاب ثراء لم تغن عنهم أموالهم شيئا حين جاءهم العقاب . وهناك أصحاب جاه وسلطان هلك عنهم سلطانهم وانتقم الله منهم . لقد هلكوا ببغيهم . ولم تفدهم قوتهم . ولا مالهم ولا سلطانهم .

فأهل مكة . أنعم الله عليهم فبطروا . وكذبوا رسولا منهم اصطفاه الله لرسالته وعرفوا صدقه . وأمانته . وقالوا له : ﴿**إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**﴾ . (القصص : ٥٧) .

فقدم لهم ربنا هذا المثل : ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن من الوارثين**﴾ (القصص : ٥٨) .

هذا تحذير عام يوحي بتكرر حالات الانتقام الالهي ، وتعددها وكثرتها ممن طغوا وبغوا على امتداد التاريخ البشري . ولأجل هذا يستحث القرآن الكريم هؤلاء الناس على السير في الأرض ، والبحث في التاريخ ليروا ، ويعتبروا ويتعظوا .

فيقول تعالى : ﴿**قل سيروا في الأرض . ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾ . (الانعام : ١١) . ويقول تعالى : ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة ، وآثارا في الأرض . فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق**﴾ . (غافر : ٢١)

ويتكرر التذكير بالقرى الكثيرة التي أهلكها بغيها على امتداد التاريخ ، مع لفت النظر إلى ما يترتب على الغفلة من امعان في الضلالة والصدود . فيقول تعالى : ﴿**فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور**﴾ . (الحج : ٤٥/٤٦)

وهذه الآيات من آيات السير في الأرض ، تذكر بمدى ما وصل إليه السابقون المهلكون بكفرهم من قوة ومنعة فيقول تعالى : ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات . فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا**

بآيات الله . وكانوا بها يستهزئون﴾ . (الروم : ٩/١٠) .

ومن أعظم ثمرات السير في الأرض بيان حقائق العقيدة من خلال تصورات السابقين . واسلوب التزامهم . فقد تبين لنا أن الشرك هو آفة البشر ، أو قل هو آفة المؤمنين في أزمنة شتي . وقد يتوافر للقوم ايمان عظيم بالقوى القادر . ويقين بعلمه وحكمته . ومع ذلك يتخذون له الوسطاء والشفعاء ابتغاء الزلني إليه . زعماً منهم أن هذا بعيد عن الشرك .

ولذا يدعونا ربنا إلى هذا المنهج ليستبين لنا سيطرة الشرك على كثير من السابقين . فيقول تعالى : **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾** . (الروم : ٤٢) .

وإذا كان القرآن الكريم في الآيات السابقة قدم دعوة مجملة للسير في الأرض من أجل أن تستمر مسيرة الحق عبر التاريخ . فقد أورد أمثلة مفصلة . وقص علينا أخبار الطغاة والظالمين بأسمائهم ومواقفهم الباغية من ربهم ومن رسله إليهم . أو من الناس الذين تقلهم معهم أرض الله . وتظلهم سماؤه .

يقول ربنا تبارك وتعالى تعقيباً على بغي قريش وتكذيبهم لرسولهم : **﴿كذبت قبلهم قوم نوح ، وأصحاب الرس . وثمود . وعاد . وفرعون واخوان لوط . واصحاب الأيكة . وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد﴾** . (ق : ١٣/١٤) .

عسي أن ترتدع قريش عن بغيها حين يستبين لها ما انتهى إليه أمر هؤلاء الطغاة .

ويقول تعالى مخاطباً رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي خطابه تثبيت له ، وانذار لقومه :

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر : ١٤/٩)

وقد اقترن التثبيت للنبي ﷺ مع الانذار لقومه في هذه الآيات أيضاً التي أوجزت الحديث عن الأمم المكذبة لرسلها ، وما حل بهم من عقوبة ، وبطش فيقول تعالى :

﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين . وكذب موسي فأمليت للكافرين ، ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ . (الحج : ٤٤/٤٢)

ونلاحظ في هذه الآية الأخيرة أنها عرضت للرسل الذين كذبتهم أقوامهم مع مراعاة الترتيب الزمني لرسالتهم .

كما نلحظ في الحديث عن موسي أن التكذيب لم ينسب لقومه ، وجاء الفعل فيه بصورة المبني للمجهول ، وهذا أمر له مغزاه الكبير ، لأن موسي يختلف عن اخوانه الرسل بأنه كذب أولى الأمر من غير قومه ، ولمثل هذا السبب لم تتحدث الآيات عن قوم عيسي عليه السلام . وذلك لأن بني اسرائيل . وهم قوم عيسي ، وإن لم يعلنوا تكذيبهم وكفرهم ، لكنهم فعلوا ما هو أشد من التكذيب ، وهو التدبير لقتله ، والخلاص منه ، ومنعه ربه فحيل بينهم وبين ما يشتهون .

ووردت المواقف الباغية لهذه الأمم من رسلهم في مواقف مفصلة تحكي حوارا وجدالاً وتفصل حيلهم ومكايدهم . ثم ينتهي الحديث بما حل بهم .

وعلى سبيل المثال سورة الشعراء . أخبرتنا بتفصيل عن جانب من قصة موسي . ثم انتقلت إلى قوم نوح ثم قوم إبراهيم . ثم عاد . ثم ثمود . ثم لوط ومدين .

وبعد كل موقف يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾ . (الشعراء : ٦٧ . ١٠٣ . ١٢١ . ١٣٩ . ١٥٨ . ١٧٤ . ١٩٠) .

والتعقيب بهذه الآية بعد كل موقف قصصي يعني العبرة الزاجرة والموعظة الرادعة .

ولم يكن حديث القرآن الكريم عن الباغين ومصارعهم مقصوراً على أعداء الرسالات . ومكذبي الرسل . وإنما قدم القرآن الكريم أمثلة من سلوك الأفراد الذين اشتط بهم البغي . فجحدوا النعمة . ونسوا فضل المنعم .

ففي سورة الكهف يقص علينا القرآن الكريم خبر الرجل صاحب الجنتين . وقد فصلنا مافيها من حوار في الفصل السابق باعتبار أنه نموذج كريم للجدل الحسن . لكن الذي يستوقفنا هنا ما عقب به القرآن الكريم على مصير الرجل الطاغية . صاحب الجنتين . إذ يقول تعالى ﴿**واحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها . وهي خاوية على عروشها . ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله . وما كان منتصراً**﴾ (الآية ٤٣)

هكذا تحل كلمة العذاب . فيضل عن الانسان من لاذ بهم من أعوان وخلان ، تصور في وقت من الأوقات أنهم مانعوه ، أو ناصروه .

وحدثنا القرآن الكريم عن قارون الذي أبطرته النعمة ، فظن أن ثروته يرجع فضلها له وحده . وما كان له من خبرة وعلم وكياسة « **وقال إنما أوتيته على علم عندي** » ..

وخدع بنفسه ، وخدع بعض العقول الواهية به .

كما احتقر أولوا العلم غروره وخداع المعجبين به .

وسجل القرآن الكريم عاقبته الوخيمة . وأصداء الأسي ، وعبرة التوبة والندم عند من افرطوا في الاعجاب به .

قال تعالى : ﴿**فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً وما يلقاها إلاّ الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون**﴾ . (القصص : ٧٩/٨٣)

٣ ـ التعرف على أخبار الأنبياء والرسل . والنماذج الصالحة من البشر الذين أعطوا بأعمالهم تجسيداً صحيحاً . وحياً لما في دين الله من قيم أمثل ، ومبادىء أسمى . وجهاد صادق ، وخلق كريم وسلوك قويم .

ومن خلال هذا التعرف يستحضر الانسان القدوة الهادية والأسوة المشرقة .

فقدم القرآن الكريم قصص الأنبياء مثلاً مضيئاً لرسول الله ﷺ يستهدي به على الطريق الصعب ، طريق الدعوة ، وما يحفل به من معاناة وبلاء وشدائد . كما قال تعالى :

﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ . (الانعام : ٩٠)

كما أنها مثل مضيء لكل مسلم يحمل عبء الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان . وقدم أمثلة أخرى قويمة من غير الأنبياء موعظة وتذكرة .

وبهذا يعطي هذا اللون من السير في الأرض ، وهو جانب القصص القدوة المتجسدة ، والمثل الحي ، والخبرات الناجحة والموفقة في طريق الدعوة .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الجانب القصصي فيه ، وخصائصه ومهمته .

* منها أنه الحق . إذ يقول تعالى : ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾ . (آل عمران : ٦٢)

* ومنها أنه أحسن القصص . وهو يعني أنه خلا من معايب القصص البشرى وما فيه من تزيد ، وخيال ، واختلاق ، وابتذال ، واستهانة بالعقل والواقع . إذ يقول تعالى في مقدمة سورة يوسف : ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ . (يوسف : ٣)

* ومن مهمته تثبيت الرسل على الحق ، وحفزهم على الصبر

وتحمل المعاناة . يقول تعالى : ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ . (هود : ١٢٠) .

* ومن مهمته تذكير أولى الألباب وتقديم الموعظة لهم بهذه الأخبار التي تميزت بالواقعية والصدق ، والهداية .

يقول تعالى : ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ . (يوسف : ١١١)

* لقد تميز القصص القرآني بأنه لا يعني بالشخوص ولا يعتد بالحبكة القصصية ، والعقدة والحل ونحو هذا مما ألفه القصاص المعاصرون تقليداً لأدباء الغرب . الذين تعني القصة عندهم معني الاسطورة .

وإنما القصة القرآنية بمعناها العربي تعني الواقع الحي ، وتتبع أخباره بصدق لتستهدي الأجيال اللاحقة بالخبرات السابقة . ولذا تجد فيه العبرة والعبرة وحدها ونجد الآيات أحياناً تتوقف عن سرد الأحداث لتلفت النظر إلى عبرة أو موعظة أو تبين حكماً أو شريعة على صلة بموضوع القصة القرآنية .

* إن القصة القرآنية تقدم للعرب الدليل على صدق الرسالة وأن القرآن الكريم من عند الله . وليس من صنع محمد ﷺ إذ لا قبل له بالعلم بأخبار هذه القرون السحيقة . أو القرون القريبة التي لم تتح له أسباب العلم بوقائعها .

وقد عرفنا القرآن الكريم هذه الحقيقة التي يوصلها إلينا القصص

القرآني . فبعد أن قص الله على نبيه قصة يوسف عليه السلام قال له : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم . إذ اجمعوا أمرهم وهم يمكرون**﴾ . (يوسف : ١٠٢)

وفي أثناء عرض جوانب من قصة موسي عليه السلام تتوقف الآيات لتقدم هذه العبرة . فيقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿**وما كنت بجانب الغربي . إذ قضينا إلى موسي الأمر . وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور . إذ نادينا . ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم . من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**﴾ . (القصص : ٤٤/٤٦) .
وفي قصة مريم يقول تبارك وتعالى : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم إذ يختصون**﴾ . (آل عمران : ٤٤) .

فمن أجل تثبيت النبي محمد ﷺ أمام ما يواجهه من عواصف التكذيب يقدم له ربنا تبارك وتعالى هذا الدرس من سيرة أخوانه الأنبياء ليتبين سنة الله في رسله التي لا مبدل لها . فيقول تعالى :
﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتي أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبأى المرسلين**﴾ . (الانعام : ٣٤)

بل يقدم له ربنا تبارك وتعالى أولى العزم من الرسل مثلاً في الصبر والثبات ومواجهة الشدائد في رضا . ورباطة جأش ، فيقول تعالى : ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل . ولا تستعجل**

لهم﴾ . (الأحقاف : ٣٥)

وذلك لأن التعجل في الداعية يعني الفشل في مواجهة الناس بالحق الذي تصدى بالدعوة له .

مع أن سنة الله وقانونه الذي لا يتخلف أن الدعاة يكذبون ويضطهدون ويصبرون على الأذى والاضطهاد . ثم يأتيهم نصر الله الذي كتبه لعباده المرسلين ولكل من ساروا على طريق الحق الذي ساروا فيه .

ومن هنا يحذر ربنا تبارك وتعالى نبيه محمدا من عجلة يونس الذي ذهب مغاضباً فيقول تعالى : **﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾** . (القلم : ٤٧ ، ٤٨)

وفي سورة أخرى يفصل ربنا تبارك وتعالى لنبيه ما كان من أمر هذه العجلة التي انتهت بدرس من دروس الأدب الالهي ، أعقبه توبة واجتباء فيقول تعالى : **﴿وان يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا انه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾** . (الصافات : ١٣٩/١٤٤)

ويقص ربنا سبحانه ـ نبأ موسي وفرعون في خمسة وعشرين موضعاً ليستمد منها ما هو في حاجة إليه من عبر ، ويعي ما فيها من دروس ومواعظ .

فيقول تعالى : **﴿وهل اتاك حديث موسي . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس او اجد على النار**

هدى﴾ . (طه : ٩/١٠) . وقال : ﴿ **هل اتاك حديث موسي . اذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى** ﴾ (النازعات : ١٥ ١٦) كما قال : ﴿ **نتلوا عليك من نبأ موسي وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ (القصص : ٣) وقال : ﴿ **واذ نادى ربك موسي ان ائت القوم الظالمين** ﴾ (الشعراء : ١٠) .

ولا شك ان النبي عليه والسلام قد عرف من القصص القرآني عن موسي رعاية الله لانبيائه . والاعداد الالهي لهم قبل بعثتهم . وحكمة الداعية . وبشرية الرسل . وحتمية الصبر والثبات . وحياة المعاناة في طريق الدعوة الى الله .

وقد قدم ربنا تبارك وتعالى لنبيه دروسا في الصبر الجميل ، وقوة العزم في مواجهة المحن الشداد من خلال حديث القرآن الكريم عن يعقوب وبنيه . وبخاصة يوسف وطهره وتعففه . وعلمه وحكمته . وتمكين الله له ولاسرته بعد ان امتحنه بالسجن ، وامتحن اسرته بحياة البادية .

وحدث ربنا نبيه عن داود . وابنه سليمان . عليهما السلام . وما انعم الله به عليهما من ملك ونبوة . وتجسد الشكر في مقالهما ، ومسلكهما ونظرتهما الى النعمة على انها ابتلاء كالمحنة سواء بسواء .

فعندما يسمع منطق النملة . وهو امر يغري الانسان بالزهو والعجب يقول : ﴿ **رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ . وان اعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾ (النمل : ١٩) . وعندما يتمكن من عرش ملكة سبأ . ويراه مستقرا عنده يقول : ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني**

أأشكر ام اكفر؟ ﴾ (النمل : ٤٠) .

وحديث ربنا لنبيه عن اسبق الانبياء في تاريخ الدعوة الى الله جاء في عدة مواطن من القرآن الكريم . وفيه بين له جهاد نوح وبلاءه ، وصبره طيلة الف سنة الا خمسين عاما ، وماذا كان ؟ ﴿ **فدعا ربه اني مغلوب فانتصر . ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الارض عيونا ، فالتقى الماء على امر قد قدر** ﴾ (القمر : ١٠/١٢) .

كما اخبر ربنا نبيه عن ايوب والضر الذي اصابه . فقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ (ص : ٤١) . وحدثه عن ابراهيم عليه السلام ، وكفاحه في سبيل الملة الحنيفية وابتلائه اياه بكلمات تكليفية فاتمها ونهض بها . وتجاوز الامتحان بصبر عظيم . ﴿ **واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : اني جاعلك للناس اماما** ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

وعن زكريا وامنيته . وشعوره بالوحدة ، وامتنان الله عليه بيحيي برغم كبر السن ، وعقم المرأة . يقول تعالى لنبيه : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا . اذ نادى ربه نداءً خفيا . قال : رب اني وهن العظم مني . واشتعل الرأس شيبا . ولم اكن بدعائك رب شقيا . واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا** ﴾ (مريم : ٢/٦) .

وعن عيسى عليه السلام ورسالته في بني اسرائيل ، وما لاقاه

من بغي بني اسرائيل . وعسف الوثنية الرومانية التي استبدت بها الشراسة الطبقية فتصدت لدعوة السلام . فيقول تعالى : ﴿ **فلما احس عيسي منهم الكفر قال : من انصاري الى الله ؟** ﴾ (آل عمران : ٥٢) .

وغير ذلك كثير . وكلها مثل مضيئة . تضيف جديدا لحيوية القدوة واثر الاسوة . ولم يكن القصص القرآني لرسول الله ﷺ مقصورا على اخبار الانبياء وانما قدم القدوة من اخبار غيرهم . ولذا حدث ربنا رسوله عن اهل الكهف . وهجرتهم في سبيل عقيدتهم . وعناية الله التي احاطت بهم . حتي رأوا باعينهم نصْرة العقيدة التي خرجوا لاجلها . فيقول تعالى : ﴿ **ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ اوى الفتية الى الكهف . فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهيئ لنا من امرنا رشدا . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم اي الحزبين احصي لما لبثوا امدا** ﴾ (الكهف : ١٢/٩) .

وكما وجه قصص الانبياء والمرسلين الى رسول الله ﷺ هو موجه ايضا الى كل من يتحمل عبئ الدعوة الى الله . وهو بالتالي داخل في منهج السير في الارض الذي يهدف الى تجسيد القدوة كما اسلفنا .

وهذه امثلة مشرقة في الدعوة الى الله من غير الرسل والانبياء يجد فيها اولوا الالباب ـ كما قال ربنا ـ مواطن للعبرة تملأ القلوب يقينا بحيوية المثل التي يدعو اليها الدين . ولم تكن فكرا نظريا .

بعيدا عن الواقع المشاهد والملموس .

ومن ذلك :

ناصح القرية :

جاء لقريته رسولان من عند الله ، او من عند نبيه عيسي عليه السلام فكذبوهما ، فجاء اليها ثالث معززا لهما ، فاصروا على الكفر ، وامعنوا في البغي ، وامتدت اليهم السنتهم بالاذى والتهديد . وانبرى رجل من القرية اخذ على عاتقه عبئ المواجهة ، فانتصر للحق ودعا قريته لاتباعه باسلوب في الدعوة توافرت فيه كل عناصر النجاح التي اشرنا . وسندرس كلماته فيما بعد عندما نقدم امثلة للدعوة من القرآن .

مؤمن آل فرعون :

موقف بالغ الجرأة والشجاعة ، لكن مع حكمة راشدة ، وحجة ملزمة وفيه صلابة النفس ، ومضاء العزم في وعي واستنارة ، وتصد فدائي للدفاع عن رسول الله موسي الذي تبادل فرعون وشيعته الرأي فيما يدبرونه له وعرض الرجل المؤمن نفسه لبلاء شديد ، وعنت وبغي لانه كشف بنصيحته استقامة ايمانه ، ورشد تصوره ، وكانت النتيجة كما قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ (غافر : ٤٥) .

لقد قدم المثل رائعا لكل صاحب دعوة ، وللايمان عندما يستقيم ويسمو كيف يتحول الى عمل ايجابي ، ودعوة للتقويم والاصلاح تتصدى للباطل ، وتقف في وجه الظلم ، كما تنتصر

للحق والعدل .

لقد تحدث القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون حديثا طويلا في اسلوب حوار بينه وبين البغاة من ذوي قرابته . فرعون واعوانه وجنده وتجد هذا الحوار في سورة غافر . او كما يسميها بعض المفسرين سورة المؤمن من قوله تعالى : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول : ربي الله . وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ (غافر : ٢٨) الى قوله تعالى : ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ (غافر : ٤٥) . ولنا لقاء قريب مع هذا الحوار . نتناوله بالتحليل عندما نقدم امثلة الدعوة في القرآن .

ان القصص القرآني اذن ـ وهو لون من السير في الارض ـ يقدم القدوة المثلى في الدعوة لكل من يحمل لواء الدعوة من واقع مسالك الانبياء ومناهجهم . او المؤمنين الصادقين في شتى العصور . كما قدمها من قبل منذ اربعة عشر قرنا لرسول الله ﷺ ليستضيء بها في درب الجهاد الصعب . وقال له في ذلك الحكيم الخبير : ﴿ **اولئك الذين هدى الله . فبهداهم اقتده** ﴾ .

نماذج حية في اسلوب الدعوة
دراسة وتحليل

عندما قال ربنا تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق** ﴾ (ص : ١/٢) . وقال له : ﴿ **وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ (الزخرف : ٤٤) . وقال له : ﴿ **نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ (الشعراء : ١٩٣/١٩٤) . وقال له : ﴿ **وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا . لتنذر ام القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة . وفريق في السعير** ﴾ (الشورى : ٧) .

يتأكد لنا من هذا المقال الحق ان القرآن الكريم بجانب انه دستور يحكم ، وشريعة تهدي هو كتاب دعوة يرشد الى الاسلوب الامثل في الدعوة مضمونا واسلوبا .

ولذا آثرت هنا ان اقدم بعض أمثلة فحسب من كتاب رب العالمين مع دراسة وتحليل . يتضح لنا منها ان خصائص النجاح في الدعوة توافرت تماما في الذكر الحكيم .

هود الداعية :

يقول تعالى : ﴿ **والى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله**

مالكم من اله غيره ان انتم الا مفترون ﴾ (الآيات من ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود) . عندما نلقي نظرة متأملة على اسلوب الداعية ، ومنهج المعارضة نخرج بعدة نتائج :

اولها : قاعدة الدعوة ، وجوهر استقامتها انها تقوم على العبودية للخالق العظيم وحده وهي قضية لا يختلف عليها العقلاء من البشر ، ويسلم لها اولوا الالباب ، والانحراف عنها افتراء وبغي .

ثانيها : الداعية لا يطلب أجرا ، وهو اساس نجاح الدعوة ، ووصولها الى اعماق القلب ، لان الداعية متي عف عن دنيا الناس ، غير متهافت عليها فان اهل البغي والضلال سيعجزون تماما عن الكيد له والاتهام والتشكيك فيه .

ولذا نجد ان هذا الأساس ورد على لسان الانبياء جميعا ، ومن سار سيرتهم من الدعاة الراشدين .

ثالثها : ربط الدعوة الى الله بتيسر اسباب الدنيا . وهذا لأن من القضايا النظرية ان البشر تهمهم دنياهم ، ويسعون الى الاستقرار والامن والمتاع ، فاذا اكد الداعية ان مناهج دعوته موصلة لما يريدون زال من نفوسهم كثير من الحواجز المانعة .

ولذا قال هود : ﴿ **ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين** ﴾ (هود : ٥٢) .

رابعها : مواجهة المعارضين تقوم على العشوائية ، وسذاجة الحجة . أما العشوائية فهي في اتهامهم الرسول بانه ليس معه البينة مع ان الحق الذي يدعو اليه اقوى من البينة ، وله سند من العقل

اقوى من الحجة ، وقد قدم البينة من واقع سنن الله في الكون والحياة ، اذ يقول تعالى : ﴿ **واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين . وجنات وعيون** ﴾ (الشعراء : ١٣٢/١٣٤) .

واما السذاجة فهي في قولهم : ﴿ **وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك** ﴾ ثم يستمرون في سذاجتهم فيتهمون ناصحهم بانه فعل ما فعل لان آلهتهم قد نالته بسوء .

خامسها : امام السذاجة المثيرة اضطر الداعية الى ان يتحدى قومه بان يكيدوا له ما شاءوا ومعهم آلهتهم الباطلة ، بدون انتظار . وهذا الموقف كفيل بهتك حجب الغفلة التي تحول بين القوم والتعقل الواعي . ﴿ **فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . اني توكلت على الله ربي وربكم** ﴾ .

سادسها : في النهاية الداعية يعذر الى من يدعوهم بانه قد بلغ والله وحده شهيد على ذلك . يقول : ﴿ **فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ان ربي على كل شيئ حفيظ** ﴾ (هود : ٥٧) .

صالح الداعية :

أرسل الى قومه ثمود . ووصفه القرآن كما وصف غيره بالاخوة لقومه الذين ارسل فيهم . يقول تعالى : ﴿ **والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه . ثم توبوا اليه . ان ربي قريب مجيب** ﴾ (هود : ٦١ ـ ٦٨) .

وبالنظر الى الحوار القرآني بين صالح وقومه . ندرك ما يأتي :

* اساس الدعوة العبودية لله وحده . كما بينا .
* ذكرهم بالسنن الكونية ﴿**هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها**﴾ .
* دعاهم الى العودة الى الله تعالى ليصلح شأنهم .
* اجابة المعترضين يزايلها التعقل والحكمة .

فقولهم : قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، لا يصلح حجة تقف في وجه الحق الذي جاء به صالح . كما انه من السذاجة البالغة ان يعدوا ما كان عليه آباؤهم منهجا واجب الاتباع . أو أن يرتابوا بدون برهان .

ورد عليهم صالح في حكمة بالغة بانه يملك الآية . وان رسالته رحمة ولا يستطيع ان يخالف امر ربه خشية انتقامه .

ثم يمتحنون بالناقة . ويقسم الشرب بينها وبين إبلهم . ويحذرون من العدوان عليها ، فيقعون في الخطأ ويعقرون الناقة عتوا عن امر ربهم وتكذيبا لرسولهم .

ونجى الله صالحا ومن معه واخذت الظالمين الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين .

ونلحظ تشابه اسلوب الدعوة بين هود وصالح . كما ان اسلوبهم في الدعوة استوفى عناصر السداد .

ابراهيم عليه السلام :

الابوة الرحيمة . والبنوة الحانية وحكمة الداعية .

دعوته لابيه ﴿**واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا**﴾ . يقول تعالى : ﴿**اذ قال لابيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا**﴾ (الآيات : من ٤١ ـ ٤٩ من سورة مريم) . وفي الآيات هذه الدروس في الدعوة :

* التلطف والادب في مخاطبة الآباء مهما كانوا ضالين .

* تأكيد منطقية الدعوة بعدد من الحجج العقلية التي يصعب ردها .

* اتباع وسوسة الشيطان عبادة له .

* منطق الرحمة والحرص . اذ يشفق على ابيه من الفتنة بعذاب من الله .

* مواجهة الاب فيها حماقة الكفر وبغيه ، والبعد عما ينبغي ان تكون عليه الابوة من التروي والاناة .

* يرد الابن بما اكتسبه من خلق البر الاسلامي ، وانه حريص على وصل ابيه في دنياه لكنه سيقاطعه تماما في دينه ، وهذا اعلى مستويات النصفة في الدعوة .

* اكرم ربنا الابن البار بنعمة الابوة لابناء ابرار اصطفاهم الله للدعوة اليه ، ولتبليغ رسالاته الى الناس .

دعوته لقومه :

يقول تعالى : ﴿**ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون**﴾ (الآيات من ٥١ ـ ٦٩ من سورة الأنبياء) . وفي هذه الآيات وما

تحويه من جدل هذه الدروس النافعة في الدعوة :

* مقياس بلوغ الرشد بمعرفة الانسان التوحيد الصحيح . ودعوة الناس اليه .

* احتج القوم بما يحتج به المنحرفون في كل عصر من براهين توحي بخمول العقل وسخفه وهو اتباع الآباء والاجداد .

* لم يجد الداعية مفرا من اعلان عدم حجية مناهج الآباء .

* هي المرة الفريدة في تاريخ الدعوة الى التوحيد التي يتخذ الداعي موقفا صارما . لكنه يحمل الحجة الملزمة فيحطم الاصنام .

* يؤكد الحوار غباء المشرك ، وفطنة الداعي الى التوحيد . ودليل ذلك قولهم : (**من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين**) . وقولهم : (**حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين**) . ولو كانوا يملكون رشدا ما قالوا هذا الكلام ، اذ كيف ينسجم لدى العقلاء ان يكون الـها ويعتدى عليه ، او ينتظر النصرة من عابديه !! . وفطنة الداعي في امعانه في السخرية من عقولهم الطائشة عساها ان تفيق فيقول : **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون** . ثم في اثارة عقولهم حتي تفكر : ايمكن ان يكون هنالك اله لا يقدر على شيء ؟ .

ان هذا الحوار في الدعوة الابراهيمية جمع عناصر الذكاء ، وحكمة القول والجدل الحسن .

شعيب الداعية :

تحدث عنه القرآن الكريم في سورة هود . اذ يقول تعالى :

﴿والى مدين اخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ (الآيات : من ٨٤ ـ ٩٥ سورة هود) .

وفي هذا حوار رائع نتعلم منه ما يأتي :

* التذكير برابطة القرابة التي من شأنها ان تخلق الثقة في نفوس المدعوين ، وتوحي بافتراض الصدق في قريبهم الداعية ، وذلك اذ يقول **يا قوم** ، واذ وصفته الآية فقالت : **اخاهم شعيبا** .

* دعوات الرسل تتجه كلها الى العقيدة بصفة اساسية حتي ترتبط القلوب بالله تعالى وحده ، وقد تتصدى بعض الرسالات لخطيئة سائدة في المجتمع كما فعل شعيب بالنسبة لتطفيف الكيل والميزان .

* الداعية الحكيم يؤكد دائما ثقته في مدعويه ، شأنه شأن الطبيب الحصيف بين يديه مريض انهكه الداء ، فيطمئنه بقرب الشفاء ، وهذا هو موقف شعيب عليه السلام ، اذ يقول : **اني اراكم بخير** ويشعرهم بمنطق البر في نفسه ، اذ يقول : **واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط** .

* في حوار القوم سذاجة ، ومحاولة استثارة عاطفة القرابة اذ يخبرونه ان دعوته تعني تسفيه الآباء والاجداد ، والتقاليد الموروثة منهم ، وهذا غير منتظر من انسان مثل شعيب في حلمه ورشده .

* حكمة الداعية ورفقه واضحان في عبارة شعيب ، اذ يخبرهم بما رزقه الله به ، وانه ملتزم مثلهم بحكم الله ، ولا يمكن

ان يأتي عملا سبق له ان نهاهم عنه . وان غايته الاصلاح بقدر جهده . والتوفيق من الله تعالى وحده .

* لا تخلو الدعوة من تحذير وتذكر . عن طريق الدعوة الى النظر والسير في الارض . اذ يذكر قومه بمصائر السابقين فيقول :

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح . او قوم هود . او قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ .

* يهدده قومه بانهم يرعون فيه حق القرابة ولولا هذا لرجموه . فيذكرهم برفق بالغ أن رعايتهم لوجه الله اولى .

* وينتهي امره معهم الى التربص والانتظار ، وهذا شأن الرسالات السابقة التي جاء الرسل فيها مدعمين بآيات كونية فاذا كفرت اقوامهم فلا مناص من الانتقام منهم .

وانتهى تربص شعيب بعذاب حل بقومه حيث كان بمثابة غمامة كثيفة تحمل صواعق كهربائية ونجى الله شعيبا ومن آمن به .

موسي الداعية :

قدم ربنا تبارك وتعالى قصص موسي ومسلكه في الدعوة لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام في سور كثيرة من الكتاب العزيز . وفي كل سورة تتحدث عن موسي نجد جديدا في ميدان الدعوة الى الله تبارك وتعالى .

يقول ربنا تبارك وتعالى : **﴿وهل اتاك حديث موسي . اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس**

او اجد على النار هدى﴾ (سورة طه من الآية ١٠ ـ ٧٦) . وفي هذا الحوار القرآني بين موسي وربه . وبين موسي وقومه نجد هذه الدروس المفيدة في ميدان الدعوة .

* في مرحلة تهيئة الداعية واعداده لموقف الدعوة .

كان لرسالة موسي عليه السلام صبغة خاصة ، إذ أن رسالته تتجه لا إلى عشيرته ، ولا الى شعب معين من البشر ، وانما لرجل هو طاغية له ملك وسلطان . وله شعبه المسرف في الولاء له ، وله تفكيره ونظرته للحياة .

ومن هنا كان لمرحلة الاعداد سمت خاص في رسالة موسي عليه السلام . وعندما ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ، أو بجانب الطور ذكره بامور :

اولها : الربوبية التي تعني النعمة والرعاية والعناية والتأييد .

ثانيها : الالوهية التي تعني ان العبودية لله تعالى وحده ، ومن الضروري قيام الصلة او الصلات بينه وبين عبده .

ثالثها : الساعة آتية لا ريب فيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، وهذه اقوى موعظة ترد الباغي عن شططه .

رابعها : الانسان في طريق الله . ييسر الله له جنودا تحميه من حيث لا يحتسب ، وقد يكون منها عصاه التي لا يعرف لها من فائدة الا الاعتماد عليها ، وهش الغنم بها . ونحو ذلك . أو يده التي يبطش بها ، فتصبح آية وبرهانا لرسالته . كما قال ربنا تبارك وتعالى مشيرا الى عصا موسي ويده **﴿فذانك براهانان من ربك الى فرعون وملائه﴾** (القصص : ٣٢) .

وعندما جاءه التكليف من ربه دفعه الاحساس بخطورة الرسالة الى ان يطلب من ربه مطالب ، تعينه على النهوض بالرسالة ، ومنها ان يشرح الله صدره ، وان ييسر له امره ، وان يحلل من لسانه ما ينتابه من احتباس ناشيء عن ضيق بالظلم والظالمين . وهنا يذكره ربه بما سلف له من عناية ورعاية كان ينبغي ان تجعله اكثر اطمئنانا لنصر الله له ، وتأييده إياه فيقول : ﴿**ولقد مننا عليك مرة اخرى . اذ تمشي اختك**﴾ الآيات وتعدد له الآيات مواقف مؤثرة في حياته كان تأييد الله يلازمه فيها .

وعندما جاء الامر بالاتجاه الى فرعون ليدعوه الى الله ، وليخلص بني اسرائيل من ظلمه نصحه ربنا بما ينبغي ان يكون عليه من سداد الدعوة والنصح ، ونلمح هذا فيما يلي :

* نصيحته له ، وهو يكلفه بمواجهة فرعون فيقول : « **فقولا له قولا لينا** » وهذا يعلي من شأن الرفق في اسلوب الدعوة ، وانه انجح في غزو القلوب من العنف ، بدليل ان القوي القادر الذي لا يعجزه شيء ينصح رسوله الكريم بلين القول .

* قدمت هذه الآيات نموذجا للدعوة ، وعلمت موسي عليه السلام ماذا يقول : ﴿**فأتياه فقولا : انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ..**﴾ الآيات .

وقد بدا في عبارة الآيات كل عناصر النجاح في الدعوة من حكمة وجدل حسن ، ونظر ، وتأمل ، وسير في ملكوت السموات والارض .

* يبدو ذكاء الداعية وفطنته في ان فرعون استدرجه ليتورط

في سب الآباء السابقين بما لهم من مواقف منحرفة لا تختلف عن مواقف فرعون وقومه ، حتي اذا وقع في هذا استعدى عليه الجماهير ، اذ يقول تعالى : ﴿**قال : فما بال القرون الاولى ؟ قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسي**﴾ . وهكذا تخلص موسي عليه السلام في براعة من حرج الموقف الذي كان يريد فرعون ان يوقعه فيه .

ويسير الحوار في الآيات كاشفا عن فطنة عظيمة ، وعقلية كبيرة ، وافق واسع وخبرة عميقة . ونظرة واعية . وينتهي امر الحوار بموقف التحدي الذي اسلم بعده السحرة . وحوار موسي مع السحرة مثل رائع في اسلوب الدعوة الى الله ندرك منه ان قلوبهم قبل المباراة المشار اليها كانت مهيأة تماما لقبول الايمان الصادق ، وما كانت هزيمتهم الا بمثابة المؤشر الأخير لهم بانه لا يسعهم إلا رحاب الايمان الصادق بما فيه من اصرار على الحق ، وحرص على استمراره .

دعاة من غير الرسل :

وفي العبر التي قدمها القرآن الكريم من مسيرة الهداة من البشر سواء اكانوا مرسلين ام غيرهم نسوق هذين المثلين .

١- رجل من قرية :

يحدثنا القرآن الكريم عن رجل جاء من أقصي المدينة يسعى ، ونصح موسي بالرحيل ، لان هناك مؤامرة تدبر لقتله ، واحس

موسىٰ ببوادر ذلك فخرج من مصر ، متجها الى مدين .

ورجل آخر بنفس هذه الصورة وقف موقفا رائعا لله . كذب اهل قريته رسولين ، وجاء الثالث فاصروا على تكذيبه ، بل تجاوزوا إلى التهكم والبغي . وانبرى لهم هذا الرجل في كلمات طيبات ، وعبارة سلسلة ، وفكرا ملزما . يقول تعالى : ﴿**وجاء من اقصي المدينة رجل يسعى . قال يا قوم اتبعوا المرسلين**﴾ (سورة يس : ٢٠ ـ ٣٠) . وفي هذا الحوار يتكشف ما يأتي :

* تأكيد الداعية لنزاهته ، وبعده عن التعلق بما في دنيا الناس من مال ومتاع ، وان الدعوة عنده عقيدة ، وليست حرفة ولا تجارة .

* عن طريق الحوار الداخلي يكشف الداعية عن سفاهة العبودية لغير الله تعالى وانها الضلال بعينه .

* انتهت الآيات بالحديث عن مصير الداعية المهتدي ، وما انتهى اليه أمر الضالين من قومه .

وبهذا قدم هذا الرجل الداعية صورة كريمة للمنهج الاكمل للدعوة .

٢ ـ مؤمن آل فرعون :

شخصية قرآنية برزت في طريق الدعوة الى الله . لم تكن من الانبياء او الرسل . وانما كانت من طراز فريد من المؤمنين ، يتحامى ، ويتوارى حتي إذا طفح الكيل صدع بالدعوة في ادب شجاع ، ومواجهة حازمة ، وامعان في كشف حجب الغفلة

باسلوب يؤثر ويثير .

عاصر موسىٰ عليه السلام وفي موقف المواجهة مع فرعون رأى تحفزا بموسىٰ وتهجما عليه ، وتهديدا له . فأعوان فرعون أعلنوا الحرب على بني اسرائيل ، وفرعون امعن في التحدي واعلن انه سيقتل موسىٰ ولن يستطيع ربه ان يدافع عنه . وموسىٰ يعلن استعاذته بالله .

عند ذلك يتقدم الرجل ، ويصف لنا القرآن الكريم هذا الموقف فيقول تعالى :

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم ايمانه : اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ . (سورة غافر : ٢٨ ـ ٤٦) .

ولدعوة هذا الرجل المؤمن كما تحكيها الآيات طابع مميز ، من سماته :

* الجدل الواعي الذي يكشف للضالين ابعاد ضلالهم ، ويطالبهم بمنهج الحيطة لان هذا الداعي ان كذب فكذبه على نفسه وان كان صادقا فسيصيبكم بعض ما حذركم منه .
* يذكر قومه بما اوتوا من بأس وسلطان أنهم معرضون للضياع ان استمروا على طريق الكفران .
* ذكرهم بمصارع الامم السابقة مثل نوح وعاد وثمود .
* حذرهم من يوم القيامة ، وما فيه من خزي وهوان واهوال .
* ذكرهم برسالة يوسف عليه السلام التي جاءتهم منذ قرون

وموقفهم منه .

* ذكرهم بمتاع الدنيا القليل الزائل .

* قارن بين موقفهم الداعي الى البغي ، الممعن في الجحود وموقفه المتسم بالهداية والحرص على الرشاد . ودعوتهم الى الشرك ، ودعوته الى التوحيد .

وعجز من يدعونهم ويضرعون إليهم ، وقدرة الخالق العظيم رب العالمين ، الذي لا إله إلا هو .

* ذكر لهم ان المستقبل القريب سيكشف الحقائق ، ويميز الامور ويتبين حقه من باطلهم وانه يفوض امره الى الله . ومكر به قومه ، فنجاه الله من مكرهم .

ونظرة الى كلمات الداعية نجد انه كان حكيما ، وجادل بالحسنى وضرب امثلة من التاريخ وذكر وحذر لكن جانب التحذير كان اكبر وكان هو الطابع المميز وذلك لان مشكلة القوم هي البغي ، والامعان في الطغيان ، ولكي ينزلهم من قمم البغي لابد من مطارق التحذير العنيفة ليفيقوا ويثوبوا الى رشدهم .

هذه امثلة متنوعة لرجال سبقوا على درب الدعوة الى الله تبين لنا منها كيف كانوا مستمسكين بملامح الاسلوب الصحيح في الدعوة الذي وصي به ربنا في كتابه ، وفصلنا فيما مضي ملامحه وعناصره .

الفصل الثالث

الدعوة الى الاسلام عبر التاريخ

* الاسلام دين البشر جميعا ورسل الله دعاة اليه .
* الرسالة الخاتمة وعلاقتها بالرسالات السابقة .
* بين الرسالتين الابراهيمية والمحمدية .
* انحراف العرب عن ملة ابراهيم .

الدعوة الى الاسلام عبر التاريخ

من الحقائق المقررة لدى الباحثين ان الاسلام هو الدين الذي اختاره الله وارتضاه ، وبعث به رسله وانبياءه من اول نوح حتي خاتمهم محمد ﷺ .

وبناء على هذا نستطيع ان نقول :

* كل الرسل مسلمون .
* وكل الرسل دعوا الى الاسلام .

اما المقولة الاولى ، فتؤكدها هذه الآيات :

يقول تعالى في شأن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه الى الله **﴿فان توليتم فما سألتكم من اجر . ان اجري إلا على الله ، وامرت ان اكون من المسلمين﴾** (يونس : ٧٢)

وسار على درب الاسلام من بعد نوح هود عليه السلام . فهو مسلم اذ قال لقومه : **﴿اعبدوا الله ما لكم من اله غيره﴾** (الاعراف : ٦٥) . وهذا هو جوهر الاسلام . كما ذكر قومه بخلافتهم لقوم نوح على طريق الاسلام فقال : **﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة﴾** (الاعراف : ٦٩) .

وجاء من بعد هود صالح . يدعو الى الاسلام **﴿قال يا قوم**

اعبدوا الله ما لكم من اله غيره﴾ (الاعراف : ٧٣) . ويؤكد خلافة قومه لقوم هود **﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض﴾** (الاعراف : ٧٤) .

وجاء ابراهيم عليه السلام بعد طور جديد في حياة البشرية . وبعد مرحلة متميزة في تاريخ الانسان . فجاء بشريعة جديدة في اطار الاسلام ، الدين الحق الذي ارتضاه الله لبني الانسان . وأكد القرآن الكريم اسلام ابراهيم في مواطن شتي . **﴿إذ قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصي بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون﴾** (البقرة : ١٣١/١٣٢) . **﴿ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين﴾** (آل عمران : ٦٧) .

ومن خلال هذه الآيات يتأكد اسلام اسماعيل واسحاق ويعقوب اذ وصاهم ابوهم به ، والتزموا وصيته ، واخذ بها يعقوب ابناءه فاستجابوا له وسار الاسلام في ذرية ابراهيم ، وحمل ابناؤه الرسل مسئولية الدعوة اليه .

فنرىٰ يوسف عليه السلام يقول ، وقد تبدل به الحال من محنة الى نعمة ــ ضارعا لربه ، شاكرا نعمه ــ : **﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والارض ، انت وليٌّ في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين﴾** . (يوسف : ١٠١) .

وجاء موسي من بعد يوسف مسلما يدعو الى الاسلام ويقول

لبني اسرائيل ﴿**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به**﴾ (غافر : ٣٤) . كما شهد له فرعون بانه دعا الى الاسلام ، اذ قال عندما ادركه الغرق : ﴿**آمنت انه لا إلٰه الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين**﴾ (يونس : ٩٠) .

وقامت مملكة داود عليه السلام على الإسلام وازدادت شموخا وعزة في عهد ابنه سليمان وفي ظلال الاسلام الحق .

وتصدر من مملكة سليمان رسالة دعوة الى الاسلام موجهة الى ملكة سبأ ويحملها الهدهد وفي نصها : ﴿**انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . الا تعلوا على وأتوني مسلمين**﴾ (النمل : ٣١)

وتستجيب الملكة العظيمة بعد لأي الى دعوة الاسلام ، وتقول كما حدثنا القرآن الكريم ﴿**قالت : رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ (النمل : ٤٤) .

وتأتي رسالات زكريا ويحيي وعيسي عليهم السلام على هدى شريعة موسي تحمل لواء الاسلام ، وتدعو اليه . يقول تعالى : ﴿**واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون**﴾ . (المائدة : ١١١) .

اما المقولة الثانية وهي دعوة الرسل الى الاسلام فقد اكدتها الآيات التي قررت اسلام الرسل . حيث اشارت الى التقائهم جميعا على طريق الدعوة الى الاسلام ، كما تؤيدها هذه الآيات :

يقول تعالى : ﴿**وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا الـٰه الا انا فاعبدون**﴾ (الانبياء : ٢٥) . ويقول تعالى : ﴿**ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم . وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب**

فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسي ابن مريم وآتيناه الانجيل . وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ (الحديد : ٢٦ ٢٧) .

الرسالة الخاتمة :

جاءت رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام خاتمة لرسالات السماء . وكشف القرآن الكريم هذه الحقيقة : **﴿ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكل شيء عليما﴾** (الاحزاب : ٤٠) . فأعلن ما اعلنه غيره من الاسلام . كما صدع بالدعوة اليه .

يقول تعالى : **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم . وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾** (الحج : ٧٨) .

بل إننا نرى الرسول الخاتم يأمره ربنا تبارك وتعالى بان يكون قدوة لكل من اسلم فيقول تعالى في اوائل سورة الانعام : **﴿قل اني امرت ان اكون اول من اسلم . ولا تكونن من المشركين﴾** (الانعام : ١٤) . وفي آخر سورة الانعام يقول تعالى : **﴿قل : ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين﴾** (الانعام : ١٦٢/١٦٣) .

وفي سورة الزمر يقول تعالى : **﴿قل اني امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين . وامرت لأن أكون أول المسلمين﴾** . (الزمر : ١٢/١١) . وأما دعوته الى الاسلام فقد سجلتها آيات كثيرة .

وسنفصل مناهجها فيما بعد . ومنها قوله تعالى : ﴿**فالٰهكم الٰه واحد ، فله اسلموا . وبشر المخبتين**﴾ (الحج : ٣٤) . ومنها قوله تعالى : ﴿**وانيبوا الى ربكم . وأسلموا له**﴾ (الزمر : ٥٤) .

علاقاتها بالرسالات السابقة :

قدمت الرسالة الخاتمة . رسالة النبي محمد ﷺ تصورا دقيقا وصحيحا للعلاقات التي تربط بين رسالات السماء . فالقرآن الكريم يقدم هذا الترابط في صورة محكمة رائعة . اذ يقول تعالى : ﴿**شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا . والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسي وعيسي أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ . (سورة الشورى .) .

فرسالات السماء كلها تتجه الى اقامة دين الله وهو الاسلام ، مع التصدي لكل فرقة باغية .

ويقول تعالى : ﴿**انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسي وأيوب ، ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل . ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسي تكليما**﴾ (النساء : ١٦٣/١٦٤) وقد قدم النبي عليه الصلاة والسلام امثلة كاشفة لطبيعة العلاقة بين الرسالات السماوية المتعددة . وأنها جهود متعاونة على طريق واحد .

فدين الله وهو الاسلام بناء عظيم راسخ الأركان ، متكامل

البنيان أسهم في بنائه رسل الله جميعا . وكل منهم يضيف لبنة او لبنات حتي جاءت رسالة النبي محمد ﷺ فعرضت بناء الاسلام على بني الانسان في أقوم صورة واسماها .

يروي البخاري ان رسول الله ﷺ قال : « **انما مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فاكمله وزينه الا موضع لبنة في زاوية من زواياه . فقال الناس ما أعظم هذا البيت .. وما أجمله ! ! لولا هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين** » .

وفي جانب وحدة الأصول الاسلامية في العقيدة والحلال والحرام واختلاف الرسالات في بعض الفروع التشريعية يقول النبي عليه الصلاة والسلام : «**والانبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتي ودينهم واحد**» .

وعلى طريق التعاون بين الرسالات السماوية . وشذوذ بعض التابعين لها عن نهج التعاون كشذوذ اليهود عن رسالة عيسي واصرارهم على يهوديتهم التي ابتدعوها . وكشذوذ الاثنين جميعا عن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وتكذيبهم لرسالته . وابتكار اسم النصرانية او المسيحية على رسالة عيسي عليه السلام . نجد النبي عليه الصلاة والسلام يسجل هذه الظواهر الشاذة فيما يضربه لاصحابه من امثال فيقول : **مثل المسلمين والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما الى الليل على أجر معلوم . فعملوا له الى نصف النهار . فقالوا : لا حاجة لنا إلى اجرك الذي شرطت لنا . وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا . اكملوا بقية عملكم . وخذوا اجركم كاملا . فأبوا . وتركوا . وستأجر آخرين**

بعدهم ، فقال اكملوا بقية يومكم هذا . ولكم الذي شرطت لهم من الاجر ، فعملوا حتي إذا كان حين صلاة ، قالوا له : ما عملنا باطل ، ولك الاجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال : اكملوا بقية عملكم ، فان ما بقي من النهار شيئ يسير فابوا . واستأجر قوما ، أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتي غابت الشمس ، واستكملوا الفريقين كليهما فذلك مثلهم مثل ما قبلوا من هذا النور[1] .

ونلمح من هذا المثل ان هذه الرسالات الثلاث هي الممثلة للدعوة الاسلامية في آخر مراحلها ، عندما كان يتولاها الوحي ويأتي بها الرسل ، وهي حقا ملة غير متناقضة ، ويجب الايمان بها جميعا ، على الصورة التي جاء بها الرسل الكرام .

وتعبير النبي محمد عليه الصلاة والسلام عن سالة موسي باليهودية وعن رسالة عيسي بالنصرانية كما ألف القوم ، تأكيدا لشذوذهم عن منهج الاسلام الحق الذي جاء به كل الرسل ، بدليل ما تورطوا فيه من اسماء لم يأذن بها الله[2] .

وبهذا يتضح لنا بجلاء منزلة الرسالة الخاتمة من الرسائل السابقة .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاجارة عن ابي بردة عن ابي موسي رضي الله عنه .

(٢) من الملاحظات ان البيان القرآني اذا تحدث عن انحرافات اليهود والنصارى تحدث عنهم بهذين الوصفين وعندما وصف اليهود بالعداوة الشديدة للمسلمين ، ووصف النصارى بالمودة قال ﴿**ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى**﴾ والآية توحي بجلاء بان الوصف بالنصرانية من ابتكارهم وإلا فان الحقيقة ان عيسي جاء بالاسلام كغيره من الانبياء .

* انها قد وعتها . واحاطت بما جاء فيها من علم ومعرفة .
* صدقت كل ما جاءت به من حق وهداية .
* هيمنت على ما سبقها من شرائع .
* وجاءت بشريعة تلائم البشرية في قمة رشدها .
* ومن هنا كانت صالحة لكل زمان ومكان .

وانتهى الامر بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الى ان الاسلام الحق . الدين الذي اختاره الله وارتضاه . ولا يقبل سواه . يتمثل في القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ . كما يتمثل في سنته الراشدة التي انتهجها في تطبيق شريعة الله . والتي اصبحت بعد النبي ﷺ الاسوة الحسنة . والقدوة الطيبة لمن يبتغي سدادا في قوله ورشادا في عمله .

واصبحت عقيدة الاسلام تفرض على المسلم الايمان بكل رسالة سماوية . وكل كتاب سماوي ولن تصلح العقيدة بدون هذا الايمان المستوعب الشامل .

يقول تبارك وتعالى : ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . والملائكة والكتاب والنبيين**﴾ (البقرة : ١٧٧) . ويقول تعالى : ﴿**آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير**﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

ومنهج النبي ﷺ في الدعوة ــ كما علمه الله اياه ــ قائم على هذا الاساس : الايمان بمن ارسل الله من رسل . وبما انزل الله من

كتب . يقول تعالى : ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت . ولا تتبع اهواءهم وقل : آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم**﴾ (الشورى : ١٥) .

وعندما كان يشتبك بعض الصحابة في جدل مع اهل الكتاب يضطرون معه الى رد كثير من اقوالهم . علمهم النبي عليه الصلاة والسلام اسلوبا قويما في الحيطة . بدلا من المسارعة الى التكذيب فيقول : « **لا تصدقوا أهل الكتاب . ولا تكذبوهم . وقولوا : آمنا بالذي انزل علينا وانزل عليكم** »[١] .

بين الرسالتين : الابراهيمية والمحمدية :

رسالة ابراهيم عليه السلام بين الرسالات السماوية بمثابة واسطة العقد . كما انها نقطة تحول من تاريخ الاسلام لها اهميتها ودلالتها . وحديث القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام يكشف عن قيمة رسالته .

يصفه الله تعالى بأنه إمام . وأعطى هذه الامامة بعد امتحانات صعبة . وابتلاءات شاقة . في كلمات صدرت إليه من ربه . يقول تعالى : ﴿**واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : اني جاعلك للناس اماما قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين**﴾ (البقرة : ١٢٤) .

ووصفه بأنه خليل . أو اعطاه صفة الخلة فقال تعالى : ﴿**واتخذ الله ابراهيم خليلا**﴾ (النساء : ١٢٥) .

---

(١) رواه الامام احمد

وهي مكانة عظيمة سما اليها ابراهيم باسلوبه الرائع في علاقته بالله الذي لا يعرف المجاملة والذي كان يدفعه الى التصدي لابيه في شجاعة المؤمن وادبه . والى التصدي لقومه بشجاعة لا ينال منها تهديد أو وعيد . ودليل ذلك ان ربنا تبارك وتعالى يقدم هذا المنهج الابراهيمي في الثبات والتصدي اسوة لاصحاب النبي محمد ﷺ . فيقول تعالى : ﴿**قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه . اذ قالوا لقومهم : انا برءاؤا منكم . ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتي تؤمنوا بالله وحده**﴾ (الممتحنة : ٤) . كما وصفه الله تعالى بانه امة . فقال تعالى : ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين**﴾ (النحل : ١٢٠) .

كما تحدث القرآن الكريم عن براهين الإيمان التي استبانت لابراهيم واستطاع بها أن يقدم لقومه الحجة واليقين : ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض . وليكون من الموقنين**﴾ (الانعام : ٧٥) . وقدم الحجة لقومه . ولابيه . وجادلهم وأفحمهم ﴿**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ (الانعام : ٨٣) .

وخرج من ذريته انبياء ومرسلون . حتي ان الرسالات السماوية من بعده كانت في ذريته . يقول تعالى : ﴿**ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا . ونوحا هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون . وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيي وعيسىٰ والياس كل من الصالحين .**

واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾ (الانعام : ٨٤/٨٦) .

وحصر الرسالة في ذرية إبراهيم من بعده دليل آخر على مكانته عند ربه . استحقها بصدق إيمانه وإخلاصه ، وصبره على الكلمات التي ابتلاه الله بها . ومنها الامر بذبح غلامه الوحيد الحليم اسماعيل . وعندما طلب من الله ان يجعل له لسان صدق في الاخرين كانت هذه المثوبة الكبيرة ، اذ بشره الله باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب . ويعقوب هو الذي لقب باسرائيل ، وهي تعني المحب لله . العابد له . وظلت الرسالة في بني اسرائيل . حتى جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فكانت إيذانا بتحول الرسالة عن بني إسرائيل إلى بني اسماعيل .

ولعل هذا الأمر هو الذي احفظ اليهود على رسالة النبي محمد ﷺ . ودفعهم إلى التصدي لها ، ومعارضتها بالرغم من انهم يعلمون صدقها ، وعندهم خبرها حتىٰ قال ربنا تبارك وتعالى في شأن موقفهم : **﴿ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾** (البقرة : ١٠٩) . وقال : **﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾** (البقرة : ٨٩) .كما قال تعالى في شأن المعتدلين منهم . الذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ ، منتصرين على نوازع الحقد والحسد : **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر﴾** (الاعراف : ١٥٧) .

وقد ظهرت حفيظتهم . وتكشف حقدهم عندما تحول النبي عليه الصلاة والسلام ــ بامر من الله ــ عن بيت المقدس الى الكعبة البيت الحرام فتأكدوا من حقيقة هذا التحول بعد أن خيل إليهم في الشهور الأولى من الهجرة التي اتجه فيها النبي إلى بيت المقدس ان تيار الرسالة سيظل معهم وعلى هواهم . مع ان هذه الفترة كانت فترة اختبار لهم ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ (البقرة : ١٤٣) . وقد انتقد القرآن الكريم هذا الموقف العدائي منهم بعد تحويل القبلة فقال تعالى : ﴿**سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم**﴾ (البقرة : ١٤٢) . كما قال ــ ردا على قولهم ــ : ليس من البر ما فعله محمد : ﴿**ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله .. الآية**﴾ (البقرة : ١٧٧) .

وههنا يبدو سؤال يفرض نفسه : اهذا التحول الى بني اسماعيل من امر الرسالة السماوية كان فجأة وبدون مقدمات ؟ ام ان هناك مراحل من الاعداد الالـهي مر بها العرب ابناء اسماعيل ليعدوا لحمل الرسالة الخاتمة الباقية ما بقيت الارض ؟

هذه هي القضية التي نريد أن نجلوها . والتي اهمل كثيرون أمرها . ومن حق الدعاة إلى الاسلام في عصرنا الحاضر أن يكونوا على بينة منها .

ان رسالة النبي العربي محمد ﷺ لم تكن فجأة وانما سبقها إعداد طويل لأمته . التي اجتباها الله معه لحمل هذه المهمة

الثقيلة . وقد قال ربنا تبارك وتعالى لنبيه : ﴿**انا سنلقي عليك قولا ثقيلا**﴾ (المزمل : ٥) . وقال لأمة نبيه : ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم**﴾ (الحج : ٧٨) .

لقد كانت هجرة ابراهيم بعد ان نجاه الله من كيد قومه ، ﴿**وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم**﴾ واتجه الى ارض الحجاز مع زوجته السيدة هاجر ، وابنه اسماعيل لمهمة حددها الله في كتابه الحق ، حيث يقول تبارك وتعالى على لسان ابراهيم : ﴿**ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾ (ابراهيم : ٣٧) .

وتوالت الشواهد . فنرى إن الله تعالى يدل نبيه المهاجر للمهمة الكبيرة على مكان البيت ، أول بيت وضع للناس ، موئلا للموحدين ، وملاذا للعباد المخلصين وأمنا للخائفين من بغي الانسان وشططه .

وهنا سيقيم حوله جمع من ابناء العرب ، فيهم صفاء البادية وفطرتها الصادقة يتعلمون من جوار البيت معني الارتباط بالله وحده واللياذ اليه عند الكروب والخطوب وليكون فيما بعد مقصدا للموحدين في انحاء الجزيرة ، الرافضين للوثنية التي تَهْوِى اليها البشرية عندما يغيب عنها رشدها .

يقول تعالى : ﴿**إن اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان**

آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا﴾ (آل عمران : ٩٧) . ويقول تعالى : **﴿واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت الا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾** . (الحج : ٢٦)

ويقول تعالى : **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا . واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾** . (البقرة : ١٢٥)

وتزداد الشواهد وضوحا . وتتبين مهمة الاعداد لهذه الامة من خلال كلمات إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل . وهما يبنيان الكعبة البيت الحرام ومع كل لبنة دعوة راغبة . وضراعة صادقة .

ومما يرغبان فيه الى الله : أمة مسلمة من ذريتهما تعيش على هذه الارض . وتحمل الرسالة . ورسول من هذه الامة يتلو آيات الله . ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها .

يقول تعالى : **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك . ومن ذريتنا امة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا . وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم﴾** (البقرة : ١٢٨/١٢٩) .

وتأتي آيات القرآن الكريم بعد هذا كله . تضيف مزيدا من هذا الارتباط حين تؤكد ان مهمة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ان يعيد العرب الى ملة ابيهم ابراهيم ، وان يردهم الى ما انحرفوا عنه من نهجها القويم . فيقول تعالى : **﴿وما جعلنا عليكم في الدين من**

حرج ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ (الحج : ٧٨) .

ثم يقول تعالى بعد أن حدثنا عن إبراهيم عليه السلام . ومكانته من العقيدة ، ومكانه عند ربه ـ موجها الخطاب إلى النبي محمد ﷺ : ﴿**ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** (النحل : ١٢٣) .

فالسير على نهج ابراهيم هو قوام رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

وعندما نازع اليهود رسول الله ﷺ في أمر الانتساب لابراهيم . وزعموا ـ جهلا أو مغالطة ـ ان ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا قال تعالى يرد عليهم بالحجة والبرهان ، والبيان الحق الذي لا ريب فيه : ﴿**ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين﴾** (آل عمران : ٦٧/٦٨) .

وقد وقر في تصور العرب في جاهليتهم انهم على دين ابيهم ابراهيم . وتصوروا ان ما يدعوهم اليه محمد ﷺ نظرا لطول عهدهم بالانحراف مخالف لملة ابراهيم ، ولذا كان ردهم عليه ﴿**ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق﴾** (ص : ٧) .

وقد ناقش القرآن الكريم هذا التصور الفاسد ، فقال : ﴿**افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ؟ ام لم يعرفوا**

رسولهم فهم له منكرون﴾ (المؤمنون : ٦٨/ ٦٩) .

وبناء على ما تقدم نستطيع ان نقدم هذه الحقيقة الراسخة وهي :

التوحيد قديم عند العرب :

يرجع امده الى عهد[١] ابراهيم عليه السلام الذي جاء ليطهر الكعبة لكل ساجد وقائم بحيث تكون مسجدا لعبادة الله وحده ، يتحقق فيه الامن لمن قصده .

وقامت امة حول البيت تتبعه ، وتهتدي بهديه ، وتحرص على الانتماء اليه ، سائرة على ملته ونهجه . وفي كل موقف كانوا يزهون بالانتساب اليه ، وبيت الله الذي اقامه على ارضهم .

يقول ابوطالب وهو يخطب في قومه قريش بمناسبة زواج محمد ابن عبدالله من خديجة بنت خويلد : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل ، وجعلنا سدنة بيته ، وساسة حرمه . وبقي فيهم — حتي بعد انحرافهم عن النهج — ثلة عرفوا بالمتحنفين . منهم قس بن ساعدة الإيادي الذي كان يخطب في سوق عكاظ وتناقلت كتب الادب خطبته المشهورة التي يقول فيها : ايها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . وذكروا ان النبي عليه الصلاة والسلام سمعه ، وقال عنه : **يبعث قس امة وحده** .

ومنهم زيد بن نفيل ، الذي اثر عنه هذا الشعر :

---

(١) ومن قبل عهد ابراهيم ، في عهود النبوة الاولى كانت رسالة هود وصالح ، وهي الفترة التي يسميها المؤرخون : العرب البائدة .

ان تقوى ربنا خير نفل وباذن الله ريثي والعجل
احمد الله ، ولا ند له بيده الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء اضل

والقول الذي يردده بعض الكاتبين ان اليهود أو بني اسرائيل عرفوا التوحيد قبل غيرهم ، نظرا لتقدم الرسالة فيهم منذ يعقوب ويوسف وموسى ، قول غير سديد ، لان هذه الدعوة عرفت في جزيرة العرب قبل هؤلاء جميعا ، دعا اليها ابراهيم ، وابنه اسماعيل . واقاما لها بيتا باذن الله ، يأتي اليه الناس من كل فج عميق . رجالا ، أو على ما يتيسر لهم من دواب هزيلة ، ليذكروا اسم الله وحده ، ويشكروه على نعمه .

انحراف العرب عن ملة ابراهيم :

لكن كيف انحرف العرب عن ملة ابراهيم ؟ وما مظاهر هذا الانحراف ؟

اما عن الانحراف ، وظهوره ، والظروف التي لابسته ودعت اليه فيمكن من خلال ما كتبه المؤرخون ، وما اخبر به القرآن الكريم وتحدث به النبي عليه الصلاة والسلام عن هذه الفترة ان نقدم هذا التصور .

تذكر كتب السنة ان عمرو بن لحى الخزاعي ـ كما أخبر رسول الله ﷺ ـ اول من تندلق اقتابه في النار يوم القيامة [1] . فماذا فعل الرجل ؟

---

(١) رواه البخاري .

قالوا انه اشترى تماثيل رآها في بلاد الشام . واعجب بها في احدى رحلاته . ورأى انها اعز واجمل ما يهدى لبيت الله الحرام . فنصبها لاول مرة من حوله بعد ان بناه جدهم ابراهيم مطهرا من كل رجس ووثنية .

لقد كان العرب يحبون البيت . ويألمون لفراقه . ومما ابتدعوه تحت تأثير هذا الحب الطاغي الذي زايله وعي الايمان ورشده انهم في اسفارهم يصحبون ثلاث قطع من احجار الكعبة . يعللون نفوسهم بالقرب منها . وعدم فراقها . ويتخذ العربي منها كانونه وموقد ناره . ومنه المثل المشهور عندهم : « ثالثة الاثافي » للامور الكبيرة الشأن . واصبحت الكعبة ــ بيت التوحيد . ومثابة العبودية الخالصة ــ يرمز اليها برموز حجرية .

وبدأت الوثنية في خفاء وتلطف . تتسلل الى القلوب المؤمنة .

ان الحب يعمي ويصم . واحيانا يضل . ويفقد المحب رشده . مع ان حب المؤمنين الصادق الخالص لله يحفظ اللب . ويبقي على الرشد ويهدي المؤمن لما هو اقوم .

﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ (يونس : ٩) . **﴿ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم﴾** (النحل : ١٠٤) .

لقد احب العرب كل من كان له مأثرة فيهم . واخطأوا اسلوب التعبير عن هذا الحب بالافراط في التعظيم والتقديس .

يقول ابن هشام الكلبي في كتابه « الاصنام » : ان اللات كان رجلا يلت السويق للحجاج . يقدمها لهم طعاما وقرى . فلما مات

عز عليهم ان يذهب اثره . فاقاموا على قبره نصبا ، لتذكره الاجيال من بعده .

وقد اوضح هذا المؤرخ بهذه الحقيقة التي ابرزها نقطة هامة هي : ان هذه الاصنام لم تكن مجرد حجارة صماء ، وانما هي رموز وانصاب على قبور قوم صالحين . وضعت تعظيما لهم ، فكانت سبيلا الى شيوع الوثنية بين قوم مؤمنين .

وليس من المعقول أو المقبول ان نتصور ان العرب الذين وصلوا الى نهضة لغوية وادبية عظيمة . وكانت لهم قيم ومثل ، ولهم ايمان شهد به القرآن ان يسجدوا للات والعزى ومناة على انها مجرد احجار او اوثان .

ان ابن عباس يروي عن رسول الله ﷺ ما يؤكد الحقيقة التي جلاها صاحب كتاب الاصنام . وروايته ان يغوث ويعوق ونسرا وودا وسواعا كانوا رجالا صالحين من قوم نوح ، قدسهم اقوامهم ، وعبدوا قبورهم .

ويذكر البخاري رضي الله عنه ان ام حبيبة وام سلمة زوجتي النبي ﷺ ذكرتا له كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير ، فقال **اولئك قوم اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، واتخذوا فيه تلك الصور ، اولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .**

بهذا العرض يتضح لنا كيف تسربت الوثنية الى العرب الموحدين المؤمنين وذلك عن طريق حبهم الشديد للبيت ، وتعظيمهم البالغ للصالحين ، واصحاب المآثر فيهم . حتي تصوروا أنَّ لهم يدا عند الله رب هذا الوجود .

اما مظاهر هذا الانحراف فتتمثل في امور :

اولها : دعاء هذه الاصنام . والتماس النفع . أو دفع الضر منها . وقد تناول القرآن هذه الآفة فيهم في آيات كثيرة : يقول تعالى : ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك . ولا يضرك . فان فعلت فانك إذا من الظالمين**﴾ (يونس : ١٠٦) . ﴿**يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه . ذلك هو الضلال البعيد ، يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى . ولبئس العشير**﴾ (الحج : ١٣/١٢) . ﴿**ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين**﴾ (الاعراف : ١٩٤) ﴿**ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير**﴾ (فاطر : ١٤) .

ثانيها : اتخاذها واسطة . تقربهم الى الله تعالى . تضمن لهم ثوابه . وتكفيهم عذابه وتشفع لهم عنده ، فالبعيد متي استجار بها تدنيه . والقريب متي اعرض عنها تقصيه .

يقص القرآن الكريم علينا شواهد من هذا الانحراف فيقول : ﴿**ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء . ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفىٰ**﴾ (الزمر : ٤) . ويقول تعالى : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل : اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض . سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ (يونس : ١٨) .

ثالثها : الحلف بها تعظيما لها . والتسمية باسمائها مع اقتران لفظ (عبد) مثل عبد العزى . وعبد مناه ، وعبد اللات وهكذا .

رابعها : الاستقسام بالأزلام ، بان يلتمس الانسان قسمته ، ويبحث عن حظه ، أو نصيبه فيما يستقبله من أمر بان يلجأ إلى أقداح عند الكعبة يهزها ويخرج قدحا منها ، وعلى اساس المكتوب على القدح الذي اخرجه يقرر مصيره ، قال الله تعالى : ﴿**وان تستقسموا بالأزلام ، ذلكم فسق**﴾ (المائدة : ٣) .

خامسها : تصورهم ان الجن ونحوهم يعلمون الغيب ، ومن هنا وثقوا في الكهنة والعرافين والمنجمين . يقول الله تعالى : ﴿**قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله**﴾ (النمل : ٦٥) . ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو**﴾ (الانعام : ٥٩) . ﴿**ولله غيب السموات والارض ، وما امر الساعة الا كلمح البصر او هو اقرب**﴾ (النحل : ٧٨) .

سادسها : التشاؤم والتطير بان يتوقعوا الشر من رؤية انسان أو حيوان معين ، أو بان يزجروا الطير ، فان سارت يمينا تيمنوا ، وان طارت شمالا تشاءموا .

سابعها : اعياد ومهرجانات ومواكب حول الاصنام احتفاء بها ينعمون فيها بما يحلو لهم من شهوات وملاذ ، ومتع .

وكان من دعاء النبي ﷺ : اللهم لا تجعل قبري عيدا .

ومع هذه الانحرافات العقدية كلها كان لا ينقصهم الايمان بالله وهذا امر قرره القرآن الكريم في مواطن شتي ، ونكتفي بهذه الآيات من سورة يونس ، ومن سورة المؤمنون .

يقول الله تعالى : ﴿**قل : من يرزقكم من السماء والارض ، ام من يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج**

الميت من الحي ، ومن يدبر الامر؟ فسيقولون : الله . فقل : افلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ فأني تصرفون﴾ (يونس : ٣٢/٣١) .

ويقول تعالى : **﴿قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل افلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع . ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شئ ، وهو يجير ، ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل فأني تسحرون﴾** (المؤمنون : ٨٩/٨٤) .

ومن هنا نستطيع ان نقول ان ايمان القوم كان يداخله الشرك ، ولذا قال تعالى في وصف ايمانهم : **﴿وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون . وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾** (يوسف : ١٠٦/١٠٥) . فهم يؤمنون بالله ربا ، يخلق ويرزق ، ويعطي ويمنع ، ويخطئون في الايمان به معبودا واحدا لا شريك له . فهم عرفوا توحيد الربوبية ، وضلوا عن توحيد الالوهية . وهذا هو الظلم الذي حذرهم ربنا تبارك وتعالى منه . يقول الله تعالى : **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا ، اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا ، وان الله شديد العذاب﴾** (البقرة : ١٦٥) . والظالمون هنا هم الذين اشركوا . اذ اتخذوا من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله . ويقول تعالى : **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** (الانعام : ٨٢) .

واذا تصورنا ان مهمة رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام كانت ـ كما اسلفنا ـ تنحصر في رد هؤلاء الناس إلى ملة ابراهيم الذي كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين يتبين لنا خطورة ما نحن فيه من جاهلية اخرى لا تقل في شراستها ، وانحرافاتها عن الاولى . وحسبنا ان نطلع على مظاهر الانحراف التي وقع فيها القوم ، ليتبين لنا ان ما يحدث في مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة من الظواهر الشركية لا يقل عما وقع فيه الاولون الذين ارسل فيهم محمد عليه الصلاة والسلام ليردهم الى التوحيد ، وليجعل الدين خالصا لله رب العالمين .

ان من المفيد ابلغ فائدة في ميدان الدعوة الاسلامية ان يضع الدعاة نصب اعينهم الحقائق التي اسلفتها ، وبجانبها هذه الحقيقة :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تنقض عرى الاسلام عروة عروة ما وجد في الاسلام من لا يعرف الجاهلية .

ان العلم بالجاهلية الاولى يساعدنا كثيرا في علاج ما انحرفت اليه الجاهلية الآخرة . ذلك لأن أسباب الانحراف في كل زمان ومكان واحدة . وظروف التورط في الشرك واحدة . والاعذار ، والتعلات التي يبديها المنحرفون واحدة . وهم جميعا ينكرون انهم مشركون . ويأبون ان يعدوا هذه الانحرافات شركا . ويصف ربنا تبارك وتعالى هذا الفهم الذي فهموه ، فيقول تعالى : **﴿ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين اشركوا : اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على انفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** (الانعام :

٢٤/٢٢) . بل اسلوبهم في التصدي لدعوة الحق واحد . يقول تعالى : ﴿**كذلك ما اتي الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون . اتواصوا به . بل هم قوم طاغون**﴾ (الذاريات : ٥٣/٥٢) . وهذا يفضي بنا الى حقيقة لابد لنا من تبيينها ونحن على طريق الدعوة هي :

* اسباب الانحراف عن التوحيد السليم واحدة .
* المظاهر الشركية واحدة .
* اساليب المشركين في الاعتذار عن شركهم واحدة .

ويدعم هذه الحقيقة ميثاق الفطرة الذي اوضحته بجلاء هذه الآيات . يقول الله تعالى : ﴿**واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . افتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون**﴾ (الاعراف : ١٧٤/١٧٢) .

وهكذا وعت الآيات تعللات المشركين . وانهم في شركهم انحرفوا عن الميثاق الفطري وان الله تعالى يبين لنا هذه الحقائق التي لا قبل لنا بالعلم بها إلا من كتابه . موعظة لنا وتذكرة عسىٰ ان نرجع الى التوحيد السليم الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها . وان الانسلاخ عنها هبوط الى الحضيض . ومهانة للانسان ، وتشويه للمهمة العظيمة التي من اجلها خلق الله البشر على هذه الارض .

ثم جاءت الرسالة الخاتمة تذكر البشر بميثاق الفطرة :

﴿**واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذي واثقكم به ، اذ قلتم : سمعنا واطعنا**﴾ (المائدة : ٧) . وتردهم الى التوحيد السليم .

وفي عهدها المشرق على البشرية ، عظمت الدعوة شأنا ومنهجا .

الفصل الرابع

حركة الدعوة الاسلامية في الرسالة الخاتمة

١ ـ الدعوة في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ الدعوة في عهد الراشدين .

٣ ـ الدعوة في عهد بني امية .

٤ ـ الدعوة في عهد العباسيين .

٥ ـ الغزو الفكري الصليبي والتتاري واثره في الدعوة .

٦ ـ الجهود الفردية واثرها في الدعوة .

الدعوة في عهد النبي محمد ﷺ

(أ) الدعوة في العهد المكي :

تلقىٰ النبي عليه الصلاة والسلام الوحي من ربه ، وكان في اول الأمر عبارة عن توجيهات عامة للنبي عليه الصلاة والسلام توقظ فطرته . وتنمي الخصائص الصحيحة التي استبقاها من موروثاته عن آبائه واجداده ، كما تلفت نظره الى بعض الحقائق الاساسية في دين الله ، مثل قضية العلم والمعرفة وطغيان الانسان عندما يحس بالاستغناء مثل : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق**﴾ الآيات .. سورة العلق .

ومنها آيات تشعره بعناية الله له ، ورعايته اياه قبل الرسالة . مثل سورة الضحى ، وفيها يقول ربنا تبارك وتعالى له : ﴿**ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى**﴾ .

ثم كلف بالدعوة الى الله . فتحرك بحكمة بالغة ، وتلطف في عبارته . فبدأ بألصق الناس به ، وادناهم منه ، واقربهم اليه .

وبناء على خبرة ودراسة واعية استجابت له زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وآمنت به رسولا ، كما اختارته منذ خمسة

عشر عاما زوجا وقالت في شأنه قولتها : يابن عم ، اني قد رغبت فيك لقرابتك . وسلطتك في قومك ، وامانتك ، وحسن خلقك . وصدق حديثك[1] .

واستجاب له بلا تردد صديقه ابوبكر ، حتي ان مسارعته كانت مثلا فريدا . كما اسلم له خادمه زيد بن حارثة ، والصبي الذي يعيش في كنفه وهو ابن عمه علي بن ابي طالب . وهؤلاء الذين اسلموا تحولوا بمجرد اسلامهم الى دعاة بجانب الداعية الاكبر.

طابع الدعوة :

اخذت الدعوة أول الأمر طابعا هادئا ، سريا لمدة ثلاث سنوات ، وذلك خضوعا لمنطق الحكمة ، التي تحتم رعاية الظروف التي تحيط بالداعية وبمن يدعوهم ، وكذا امكاناته وامكاناتهم .

وفي ظلال السرية كان يغلب عليها طابع الدعوة الفردية . فكل من اسلم يتصل بمن يتوسم فيهم الخير من ذوي قربي أو اصدقاء ، وبطريق الحوار الواعي والجدل الحسن كانت تتحرك الدعوة في هذه الظروف ، وان كان نجاحها ضئيلا بحكم غلبة الهوى . وسيطرة العادات والتقاليد .

ثم اخذت الدعوة طابع المجاهرة . وكان ذلك تنفيذا لقوله تعالى : ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾ (الحجر : ٩٤) واهتز كيان القوم عندما علا صوت الاسلام ، واصبحت

---

(١) ابن اسحاق رواية ابن هشام .

الدعوة توجه للمجتمعات القرشية حول الكعبة كما توجه للافراد حيثما كانوا . وكانت الدعوة تتحرك بمنهجها الاسلامي القويم . والله تعالى يتابع نبيه بالنصح والتوجيه فيقول له : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ (الشعراء : ٢١٤) ، فتكون اسرته اول مجتمع قرشي يدعى للاسلام ، ويقول لهم فيما قال : « **ان الرائد لا يكذب اهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم ، والله ما اعلم رجلا في العرب جاء قومه بافضل مما قد جئتكم به . اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . فايكم يؤازرني على هذا الامر؟** » فاحجم القوم عن مناصرته سوى ابن عمه الصبي علي الذي صاح في حماسة : انا يا نبي الله اكون وزيرك . فسخر القوم من النصير الصغير . غير ان عمه ابا طالب آزره اصدق الموازرة ، ونصره اعظم نصرة مع استبقائه لمألوف آبائه واجداده ، ورفضه الدخول في الاسلام .

وواجه المجتمع المكي كله من فوق الصفا ، واسرهم بمنطق حصيف . اذ قال : **أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادي تريد ان تغير عليكم اكنتم مصدقي** ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا . قال : **اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة**[1] .

ولم يستطع القوم ان يقولوا شيئا امام منطق حكيم لرجل من قريش ما عرفوا عنه الا الخير ، ولا يستطيعون رده الا بالافتراء والمصادرة والبغي . وهذا هو الاسلوب الذي سلكته قريش اول

---

(١) راجع صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة (الشعراء) ، وسورة (تبت) وراجع سيرة ابن هشام .

الامر بديلا للاستجابة الحتمية .

وتحركت سفينة الدعوة بين انواء واعاصير ، وعواصف عاتية ، وامواج عالية تستقر حينا ، وتهتز احيانا ، تتخطى عقبة ، لتقوم في وجهها عقبة اخرى .

منطلق الدعوة :

والدعوة في هذه الظروف لابد لها من مستقر ، ومكان امين يلوذ به القوم ويلتقون فيه يتشاورون ، ويتبادلون الرأي ، ويتزودون بالنصح من رسول الله ﷺ ، وماذا يشير عليهم فيما يواجههم من مشكلات كبار ، ولكي يكون لهم من حرمة المكان الخاص ما يمنعهم من فضول السفهاء وبغيهم .

واختار النبي عليه الصلاة والسلام دار الارقم بن أبي الارقم عاصمة للدعوة وكان لها اثر كبير فيها في هذه المرحلة الهامة من مراحلها . ولنترك السير ارنولد يحدثنا بتناوله التنزيه لهذا الاثر . يقول :

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من اجله اتخذ محمد دار الارقم بن الارقم ، وهو احد السابقين الى الاسلام ، وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجاج الغرباء ، وقد استطاع الرسول ان يواصل نشر مبادئ الاسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة ، وتعد الفترة التي قضاها محمد في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الاسلامية بمكة حتى ان كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم في الاسلام من تلك الايام التي

كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الارقم[1] .

وظلت هذه الدار مركز اشعاع للدعوة ، وشهدت لقاءات هامة وفي رحابها اسلم كثير من كبار القوم ، ومنهم عمر بن الخطاب ومصعب بن عمير حتي كانت الهجرة الى المدينة ، فانتقلت حركة الدعوة الى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وما كانت الدعوة تخرج من دار الارقم لتتحدى المجتمع القرشي خارجها الا عندما تجد انسانا قوي المراس يخشي القوم بأسه ، ويتفادون بادرته مثل عمر ، أو رجلا دفعته قوة الايمان الى المغامرة بمواجهة القوم بكلمة حق لله وليكن بعدها ما يكون مثل عبدالله بن مسعود الذي قرأ القرآن الكريم وأسمع القوم قوارعه وزواجره . وتعرض لبلاء عظيم ، لكنه لم يثنه عن العزم على العودة الى مواجهة القوم بآيات رب العالمين .

رجال لهم اثر في الدعوة :

وأعني بالرجال شخصيات انسانية ، تميزت بصفات من المروءة والشجاعة وصدق العزم ، وقوة الحزم ، وروعة التأثير سواء أكانوا رجالا أم نساء .

وفي مقدمة هؤلاء نجد السيدة الفضلى خديجة بنت خويلد الزوجة الاولى لرسول الله ﷺ ، والتي كان زوجا خالصا لها وحدها مدة حياتها . لقد كان اثرها في حركة الدعوة في هذه الفترة العصيبة قويا وبليغا .

---

(١) الدعوة الى الاسلام لارنولد .

يقول ابن اسحاق في السيرة : وكانت اول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك الا فرج الله عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته ، وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه امر الناس[1] .

وظل النبي عليه الصلاة والسلام يذكر لها هذا الفضل بعد وفاتها حتى ان عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على امرأة ما غرت من خديجة وما رأيتها ولكني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ، ولقد كان يأتي بالشاة فيذبحها فيوزعها في صدائق خديجة .. وذكرت انها قالت للرسول عليه الصلاة والسلام ذات مرة : هل كانت خديجة الا عجوزا حمراء الشدقين ابدلك الله خيرا منها ، فقال : **والله ما ابدلني الله خيرا منها ، لقد آمنت بي اذ كفر الناس ، وواستني باموالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء**[2] .

لقد سخرت خديجة مالها للدعوة الاسلامية كما سخرت نفسها لتوفير جو من الامن والسكينة يهيئ للداعية الانطلاق على طريق الدعوة ويذهب من نفسه الاحساس بالحزن والألم .

ويأتي بعد خديجة ابوبكر رضي الله عنه . كان وجيها في قومه ، اثيرا لديهم ، محببا اليهم ، كما كان مرجعهم في العلم بالانساب ، اذ كان نسابة العرب . وكان تاجرا موسرا موثوقا به . واسلامه

---

(١) سيرة ابن هشام .

(٢) رواه البخاري .

أثرى الدعوة . وأكسبها حركة ونموا . فقد سخر الاموال في شراء العبيد الارقاء الذين اسلموا ليخلصهم من عذاب سادتهم ومن نقمتهم عليهم . ومنهم بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ . كما اسلم على يديه عدد من علية القوم . منهم سعد بن ابي وقاص الذي تم على يديه فيما بعد فتح فارس . والزبير بن العوام . وطلحة ابن عبيد الله الذي اشتهر بفروسيته . وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر وعثمان بن عفان الذي كان فيما بعد ثالث الخلفاء الراشدين .

ومنهم حمزة بن عبد المطلب الذي علم ان ابا جهل اهان ابن اخيه فتحول بهذا من عدو عنيد إلى متعصب غيور وشد من عزم الدعوة . ودفعها الى قدر كبير من المواجهة .

ومنهم عمر بن الخطاب الذي كان من اشد اعداء الرسول . واصلبهم وتضافرت الاسباب لدى المسلمين على انه اخطر الاعداء وألدهم . ولذا كان اسلامه فتحا . وهجرته نصرا وخلافته رحمة .

« ويعد اسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الاسلام . فقد استطاع المسلمون ان يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكا اشد جرأة فترك محمد دار الارقم واخذ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الاسلام جماعات حول الكعبة »[1] وخرجوا لاول مرة في موكب سافر . وطافوا حول البيت . يتقدم عمر موكبهم ومعه حمزة ابن عبد المطلب .

---

(١) الدعوة الى الاسلام لارنولد ص ٢٩

ومنهم مصعب بن عمير الذي هجر الترف ، وآثر العقيدة بما وراءها من معاناة ومحن . ولازم النبي عليه الصلاة والسلام يتلقى ما عنده من وحي ومن حكمة وأدى دورا بارزا في الدعوة في يثرب حين رشحه النبي عليه الصلاة والسلام ليكون اول مبعوث في الاسلام للدعوة الى الله ، وصحب وفد يثرب المكون من الاوس والخزرج في عودتهم من الحج ، واقام فيهم داعيا ومعلما حتى تمت الهجرة الكبرى .

تنوعت اساليب الدعوة :

من سر الى جهر ، ومن فردية الى جماعية كما اسلفنا . ومنها الخروج والحركة . فسافر النبي عليه الصلاة والسلام الى الطائف . يبتغي ارضا اخصب تستنبت فيها بكفاءة تامة بذور الدعوة الاسلامية . كما اتخذ من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تفد على مكة عند موسم الحج ، ولا شك ان هذا التجمع الضخم اعظم فرصة تتاح لنشر الدعوة ، لانه يضمن سيرورتها في انحاء الجزيرة العربية .

ومنها الهجرة .. فكانت حلا ايجابيا لمشكلات تقف في طريق الدعوة وكان يتجاوزها المهاجرون بما في الهجرة من بلاء وتضحية . وصبر واستسلام حتى يتم لهم النصر والتأييد فهاجروا الى الحبشة مرتين ، واكثرهم الى يثرب . وهاجروا الى المدينة المنورة الهجرة الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ ، وتحولت على أثرها الدعوة إلى دولة ذات بأس وسلطان يحسب لها ألف حساب .

وتنوعت اساليب المقاومة :

وبقدر ما حاول النبي عليه الصلاة والسلام من تجديد لاسلوب الدعوة امعنت قريش في البغي . وتفننت في اساليب المقاومة . فسلكت مسلك اضطهاد من آمنوا بكل الوان العذاب والاضطهاد وحسبك ما لاقاه بلال وعمار واسرته .

حاولت التأثير على أبي طالب الذي كان يبذل نصرته لابن اخيه بسخاء ووفرة . وفشلت عندما رأوا في النبي عزما لا يلين وفي عمه اصرارا على النصرة . اتخذت المنهج السلمي . والقت شباك الاغواء والاغراء . وذهب الوليد بن المغيرة يحمل مهمة القوم الى رسول الله ﷺ فسمع منه ما اخذ بلبه . وامسك بمجامع قلبه حتي فزع قوم الوليد لما رأوا من تغيره وتحوله . والحوا عليه حتي اعادوه الى دين آبائه ونزلت فيه آيات من القرآن الكريم :

﴿ثم نظر . ثم عبس وبسر ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا إلا سحر يؤثر﴾ (سورة المدثر) .

وعندما تطورت اساليب الدعوة بعد اسلام عمر اتخذت قريش وسائل شتي للقمع والارهاب وقررت محاصرة محمد واهله . ومقاطعتهم . ومعهم اقاربه الذين يؤيدونه .

وكان حصارا مرا عنيفا أَلْحَقَ بالقوم الجهد والكلال واكلوا ورق الشجر . وانتهت المقاطعة ومزقت صحيفة الظلم بتأثير ما بقي لدى بعض قريش من شهامة ومروءة موروثة من آباء كرام .

وكان آخر ما اتجه اليه القوم بعد أن فشلت كل اساليبهم ان اجتمعوا في دار الندوة ، ودبروا لقتل الرسول ﷺ ، وهو الحل الذي ارتضوه للتخلص منه بعد ان استبعدوا حلولا اخرى لم يروها كفيلة بتحقيق ما يريدون . وقد اشارت الى ذلك هذه الآية يقول تعالى :

﴿واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين﴾ (الانفال : ٣٠)

(ب) الدعوة في العهد المدني :

كانت الهجرة الى المدينة خطة دعوة بالتماس ارض اخصب لاستنبات العقيدة الصحيحة ، وبتوخي البيئة الملائمة سكانيا وجغرافيا لاستيعاب الرسالة الجديدة وتوافر ليثرب من الخصائص ما جعلها افضل مكان للهجرة فهي على طريق القوافل بين مكة والشام ، وتشكيلها السكاني والظروف المحيطة بهم جعلتهم اسرع استجابة من قريش . وقام بتحليل هذا الجانب السير توماس ارنولد فقال :

وكان اهل المدينة قد الفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته[1] ، ومن ثم كانوا اقدر على فهم نبوة محمد من أهل مكة

---

(١) فكرة المسيح المنتظر ، أو المخلص المنتظر كانت سائدة قبل الاسلام وكان يردده يهود يثرب فكانوا يقولون للعرب : سيظهر نبي آخر الزمان نؤمن به ، ثم نقتلكم قتل عاد وارم ، وهذا الوعيد من اليهود جعل اهل يثرب اسرع استجابة للاسلام بينما تقاعس اليهود وهذا الامر اشارت اليه الآية الكريمة **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾** (البقرة : ٨٩) .

الوثنيين[١] فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة . ومبغضة الى قلوب القرشيين منهم بخاصة[٢] .

ثم يقول : زد على ذلك ان مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع داخلي دائم بسبب الخصومة التي قامت بين الاوس والخزرج . وعاش اهل يثرب في قلق واضطراب ، وما من شيء يمكن ان يربط هذه الاحزاب المتنافرة برباط من المصلحة المشتركة الا كان خيرا لهذه المدينة .

ثم يضيف لتحليله هذا قوله : ويظهر ان من اسباب الترحيب الحماسي الذي لقيه محمد عليه الصلاة والسلام قد بدا للطبقة المستنيرة من اهل المدينة علاجا لهذه الفوضي التي كان المجتمع يقاسيها بنظامه الرتيب في الحياة ، وجعل اهواء الناس الصعبة خاضعة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الاهواء الفردية[٣] .

هذا التحليل الكاشف عن بعض الاسباب لاختيار المدينة مهاجرا للدعوة الاسلامية فيه بجانب هذا قدر من الخلط الناشئ

---

(١) هذه الكلمة دلالة على ان الكاتب لم يكن على تصور تام لما كان عليه العرب قبل الاسلام وهو اعتدادهم بملة ابراهيم القائمة على التوحيد غير انهم انحرفوا عندما اتخذوا هذه الاصنام شفعاء عند الله أو واسطة تقرب من الله ، وليس رموزا دالة على الله كما تقول الوثنيات .

(٢) لم تكن فكرة النبوة أو الرسالة مبغضة الى القرشيين كما استنتج الكاتب خطأ بدليل ما يحكيه ربنا تبارك وتعالى عنهم فيقول : ﴿**وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا**﴾ كما قال تعالى : ﴿**واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم**﴾ (فاطر : ٤٢) .

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٣٠ .

عن فساد التصور وقصور الادراك لحقيقة القوم عند هذا المستشرق برغم تمكنه في الدرس والتحليل.

لكن ايما كان الامر فان الهجرة الى المدينة كان ثمرة لاسلوب جديد ومفيد في الدعوة لجأ اليه الرسول عليه الصلاة والسلام عندما تكاثرت المحن، واحاطت به الخطوب فماتت زوجته ومات عمه ابوطالب وثبت الله قلبه بالاسراء الى المسجد الاقصي وأراه من آياته عند ذاك، استأنف الدعوة بروح جديدة واسلوب جديد، وهو استغلاله فرصة موسم الحج، ومن خلال ذلك تعرف على حجاج يثرب الذين هيأتهم الظروف المشار اليها الى الاستجابة. وعقد معهم عند العقبة في مني بيعتين متتاليتين، وبعث مصعب بن عمير معلما لهم، ولمن استجاب الى الاسلام معهم. وكان في البيعة الاولى عشرة رجال من الخزرج، واثنان من الأوس، وفي الثانية كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين.

وانتشر الاسلام في المدينة سريعا حتي ما بقي في المدينة بيت الا فيه ذكر لله، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام قد هاجر اليهم بعد.

وهذه صورة تاريخية تبين مدى يسر الدعوة في مجتمع يثرب.. جلس مصعب بن عمير مع اسعد في دار بني ظفر من الاوس، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير شيخي بني عبد الاشهل يضيقان ذرعا بما يدعو اليه مصعب، فقال سعد لأسيد: انطلق الى هذين الرجلين اللذين اتيا الى دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما. وانههما ان يأتيا دارنا فانه لولا ان اسعد بن زرارة مني

حيث علمت لكفيتك (وكان سعد بن معاذ ابن خالة اسعد)
وعندئذ تناول اسيد حربته ، وانطلق الى اسعد ومصعب ثم صاح
بهما : ما جاء بكما الينا ؟ اتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا ان كانت لكما
في نفسيكما حاجة . فاجاب مصعب في هدوء :

اوتجلس فتسمع . فان رضيت امرا قبلته . وان كرهته فكف
عنه . فركز اسيد حربته في الارض وجلس اليهما يسمع . ومصعب
يشرح له مبادئ الاسلام ، ويقرأ عليه بعض آيات من القرآن ،
وصاح اسيد بعد برهة مأخوذا : كيف تصنعون اذا اردتم ان تدخلوا
هذا الدين ؟ فاجابه مصعب : تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد ان لا
الـه الا الله وان محمدا رسول الله . فاستجاب اسيد لساعته وردد
شهادة الاسلام ثم قال : ان ورائي رجلا (يشير الى سعد بن معاذ)
ان اتبعكما لم يتخلف عنه احد من قومه وسأرسله اليكما الآن .

وجاء سعد بن معاذ ثائرا ، وقد اشتد غضبه على اسعد لما قدمه
لدعاة الاسلام من تأييد . ورجاه مصعب الا يحكم على الدين قبل
ان ينظر فيه ، وجلس سعد مصغيا لكلام مصعب واذا به يتأثر .
ويقتنع . ويدخل الدين ، ويصبح من المسلمين . ويتحول الى
داعية ناجح ، اذ ذهب الى قومه وقال لهم : يابني عبد الاشهل .
كيف تعلمون امري فيكم ؟ قالوا سيدنا . وافضلنا رأيا وايمننا
نقيبة . فقال سعد : فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام
حتي تؤمنوا بالله ورسوله . ومنذ ذلك اليوم اسلم كل بني
عبد الاشهل .

هذه القصة التي يرويها ابن اسحاق تكشف عن يسر الاستجابة للاسلام في اهل يثرب ، وقد أشرنا إلى ذلك ، وحللنا الدواقع اليه .

وحضر الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة وقد تهيأت له فيها قاعدة عريضة ممن اسلموا على يد مصعب ، وخرجت طيبة فاتحة ذراعيها تستقبل نبي الهدى الذي ستدخل على يديه التاريخ وستصبح منطلقا لدعاة الحق ، ومركز اشعاع للاسلام يمتد منها الى الآفاق .

وفي موكب حافل دخل الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب ، وسماها المدينة ، واخذ يضع الاسس التي ستقوم عليها الدعوة في المرحلة المقبلة .

ولا ريب ان ظروف الدعوة في المرحلة المدنية تختلف تماما عن العهد المكي وفيما قدمته من افكار دليل واضح ، وكاشف لهذه الفروق . كالفرق بين الدعوة في مجتمع زراعي والدعوة في مجتمع تجاري . والدعوة بين قوم مهيئين لها والدعوة بين قوم بطروا معيشتهم . ولاجل هذا اختلف المنهج تماما . كالفرق بين دعوة بلا صولة ودعوة لها دولة .

وكان على الداعية العظيم ان يخطط لمرحلتين : مرحلة تملأ فيها الدعوة ارجاء الجزيرة بعد ان تقتحم بطاح مكة ، واخرى تنطلق منها الى الآفاق .

وفي حساب الداعية ان يخطط للاولى وينفذها . كما يطلق الشرارة لتحقيق المرحلة الثانية ، وليسر على طريقه الراشدون من

خلفائه وصحابته . وللمرحلة الاولى وضع الاسس التالية :

اولها : بني المسجد يجتمع فيه المسلمون للصلاة . وللتشاور في امورهم وللتعليم والدراسة . وللنظر في اعداد السرايا والجيوش . وللقضاء في الخصومات . وقد اتخذه بعض الصحابة معتقلا لهم عندما احسوا انهم قد اذنبوا .

ان الدعوة بعد الهجرة اصبح لها دولة . وكان المسجد هو ملتقى السلطات ومحور النشاط . وميدان العمل للدولة الجديدة .

ثانيها : ايجاد رابطة مناسبة بين العناصر السكانية المتباينة . فكأنت المؤاخاة بين المسلمين من مهاجرين وانصار . واقام عهودا بينه وبين قبائل اليهود حول المدينة . هؤلاء الذين حرص النبي عليه الصلاة والسلام على البر بهم والتودد اليهم . واستمالتهم الى الحق الذي يعرفونه . ويحول بينهم وبينه الحسد . فصلى المسلمون الى بيت المقدس ليشعرهم بترابط الرسالات السماوية . وصام عاشوراء ولكنهم حرصوا على التكذيب والاعراض ، والتحالف مع عناصر النفاق في المدينة ولا سيما بعد ان نزلت التشريعات تباعا بما لا يرضي اهواءهم . فنزل الامر بصيام شهر رمضان . ورمضان شهر عربي . ورأوا فيه تحديا لصيام عاشوراء الذي درجوا عليه . وامر النبي عليه الصلاة والسلام بان يحول وجهه الى البيت الحرام : اول بيت وضع للناس والقبلة الوحيدة في الاسلام بدلا من بيت المقدس فثارت ثائرة اليهود وملأوا الدنيا بالشائعات والاراجيف . وقال ربنا تبارك وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿**سيقول السفهاء من الناس** :

ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ (البقرة : ١٤٢) . وقال له : ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾** (البقرة : ١٤٣) . وهذه الآية الآخيرة كشفت بوضوح عن اسباب الاتجاه لبيت المقدس اول الأمر .

وسر هذه الثورة التي اثارها اليهود حول تحويل القبلة انهم ادركوا من هذا التصرف ان النبي محمدا ﷺ رسول له منهجه ورسالته . ومن الصعب احتواؤه ، وان زمام القيادة الفكرية الاسلامية تحول من بني اسرائيل الى بني اسماعيل .

وقد اشار المستشرق ارنولد الى نحو هذا ، اذ قال : وكان لتحويل القبلة مغزى ابعد مما قد يبدو لأول وهلة ، اذ كان ذلك في الواقع بداية للحياة القومية في الاسلام ، فجعل من الكعبة في مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة ، كما كانت تماما في الازمان السابقة . مقصدا لحج القبائل العربية جميعا ، ونظير ذلك في الاهمية ما كان من جعل الحج الى مكة تلك العادة العربية القديمة [١] من فرائض الاسلام ، فاصبحت فريضة يؤديها المسلم مرة على الاقل في حياته . ثم توالت التشريعات التي تنظم المجتمع المسلم في الدولة الناشئة .

ولكن كيف تنطلق هذه الدولة في طريق الدعوة ، ومن حولها طوفان من الاعداء ينظرون الى مجتمع المؤمنين نظرة تربص

---

(١) هذا التعبير يكشف عن جانب من الفهم الخاطئ في تصور المستشرقين للاسلام اذ الحج لم يكن عادة وإنما كان عبادة مفروضة منذ بني ابراهيم الكعبة البيت الحرام .

وتحفز لانهم في حسابهم الباغي خرجوا عن اعراف القبائل وتقاليدها الموروثة . ومع هؤلاء الاعداء آخرون يعيشون بين المؤمنين كأنهم منهم وهم في واقع الامر عليهم . فلابد للدعوة اذن ان تستعد لتصون لا لتهدد ، وليأمن في ظلها الضعيف ويرتدع القوي ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وجاء هذا التوجيه الإلهي السديد : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم . الله يعلمهم . وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون . وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾ (الانفال : ٦٠/٦١) .

بهذا البيان السديد قدمت الآيات دستورا للحرب والسلام في الاسلام ، وهو ينحصر في الاسس الآتية :

* الاستعداد المادي بما يحقق الهيبة لدولة الاسلام ، وهو ما يسمى في علم الاجتماع الحديث بالسلام المسلح .

* الدولة الاسلامية مع السلام ، فالسلام هو الاصل ، والحرب ضرورة متي تحتمت وسيلة للدفاع وصيانة الحقوق .

* الاعتماد على الله مع الاخذ باسباب النصر .

هل القتال اسلوب للدعوة :

وصدر الاذن للمسلمين في دولتهم الجديدة في المدينة بالقتال وجاء مشفوعا بالاساس الانساني للحرب ، اذ يقول تعالى : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير**.

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز﴾ (الحج : ٣٩/٤٠) . وهكذا تكشف الآية عن أساس إنساني للحرب هو انها سبيل للحفاظ على المقدسات والقيم ، وحماية الحق من الباطل ، واهواء اهله .

وقد اشارت آيات القرآن الكريم الى ارتباط الحرب بالدعوة ، وانها في الاسلام ليست الا وسيلة دفاعية فحسب ، اذ يقول تعالى : **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين﴾** (البقرة : ١٩٠) .

* فالحرب في الاسلام في سبيل الله .
* ولابد ان تكون ردا لعدوان ، او تأمينا منه .
* ينبغي ان لا يكون فيها عدوان بمعني تجاوز المدى الانساني .

وبدأت ملحمة من الصراع العنيف ، وقف فيها البغي في وجه الدعوة ولم يمنحها الظالمون الفرصة لتواصل مسيرتها بالحكمة والموعظة الحسنة . وتحركت سرايا من المهاجرين ترمي إلى استخلاص حقوقهم التي سلبتها قريش بسبب هجرتهم . وذلك عن طريق قوافلها التجارية الذاهبة الى الشام مارة بيثرب (المدينة) . وعلى اثر هذه السرايا نشبت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية . وجاءت قريش لتثأر من هزيمتها في بدر ، وكانت غزوة أحد في السنة الثالثة . وتجمع الاحزاب في محاول حاسمة للقضاء على دولة الاسلام في المدينة في السنة الخامسة .

وفي هذه الفترة كان اليهود قد نقضوا مواثيقهم مع رسول الله ﷺ . فكان من نتيجة هذا تصفية الوجود اليهودي حول يثرب في السنوات : الثانية ، اذ تخلص من بني قينقاع ، والثالثة ، اذ تخلص من بني النضير ، والخامسة إذ تم القضاء على بني قريظة .

وفي هذه الفترة تحركت قوات إسلامية في مناطق مختلفة في الجزيرة العربية هي الى الدعوة والتوجيه اقرب منها الى العمل الحربي .

توقف المعارك وانطلاق الدعوة :

كان يملأ قلوب المهاجرين حنين الى الحرم ، والى مكة كلها وكان العرب جميعا من حول المدينة من اسلم ومن لم يسلم على هذا النحو ، ويحول بينهم وبين ما يريدون ان الطريق غير آمن بسبب المعارك الضارية بين المسلمين وقريش ومن حذا حذوها من القبائل في حرب الاسلام . ولاجل هذا ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يرى رؤياه بانه دخل المسجد الحرام محلقا أو مقصرا غير خائف ، فتيقن انها دعوة للعمرة فاستجاب كثير من المسلمين ، وعدد من غير المسلمين ، واكد المسلمون بكل ما يملكون من مظاهر التعبير أنهم طلاب عبادة ، وليسوا بغاة حرب .

ووقفت قريش في وجههم اول الامر ، وانتهى الأمر الى مفاوضات ختمت بصلح الحديبية المشهور في السنة السادسة الذي يعتبر نقطة تحول بارزة في حركة الدعوة ، وكأن الدعوة بعده قد نشطت من عقال ، بعد ان امن الطريق ، وتيسرت الأسباب .

وذهب الخوف .

ولذا كان من نتائج الحديبية نزول قوله تعالى : ﴿**انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما**﴾ (الفتح : ١/٢) . ونزلت السورة كلها ، مما يشير الى ما وصلت اليه الدعوة من نهضة وتطور بعد الحديبية .

ولقد نهضت الدعوة بما هيئ لها من هذه الظروف التي يمكن ان نسجلها فيما يلي :

١ ـ اتسع مجال الحركة امام الدعوة ، فتبادل أهل مكة وأهل المدينة الزيارات وتمت لقاءات . وعندما يتم لقاء يستفيد منه صاحب الدعوة ، بما يتهيأ له من ظروف طبيعية ، تسودها المودة والاخوة ويتيسر في ظلال ذلك الجدل الحسن . ولهذا اسلم بعد الحديبية جموع كثيرة وفي مقدمتهم جمهرة من رجالات قريش منهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، والعباس بن عبد المطلب .

واستطاع الرسول عليه الصلاة والسلام ان يفتح خيبر ، ويلزم اليهود بدفع الجزية للدولة الاسلامية لاول مرة منذ انشائها .

كما فتحت مكة بدون مقاومة تذكر ، واذعن اشراف قريش لاخيهم الكريم الذي جاءهم بجيش عظيم من المسلمين ، بعد ان اخرجوه واصحابه من ديارهم واموالهم . فلم يقاوموه الا ساعة من نهار ، ولم يستمروا في المقاومة لانهم شعروا انه لا حق لهم

بعد ان نقضوا عهد الحديبية ، وانه قد آن الاوان ليلقوا اليه بالسلم ويدخلوا في السلم كافة . وهم حين اسلموا لله كانوا مطمئنين الى العفو الكبير في قلب اخيهم الكبير . وعندما قال لهم يا معشر قريش . **ما تظنون اني فاعل بكم**؟ قالوا : خيرا ، اخ كريم ، وابن اخ كريم ، قال : **اذهبوا فأنتم الطلقاء** .

وباسلام قريش واهل مكة اسلمت جزيرة العرب ، وارتفعت راية الاسلام في انحاء الجزيرة ، وردد الجميع لا اله إلا الله ، ونزل بعد الفتح قوله تعالى : ﴿**اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا**﴾ .

٢ ــ وفود العرب الى رسول الله ﷺ .

وفي ظلال الأمن بعد الحديبية تحركت القبائل العربية من انحاء الجزيرة صوب يثرب (المدينة المنورة) مجادلة متثبتة ، أو مسترشدة مستهدية وكانت هذه الوفود تعود من حيث جاءت مسلمة راشدة ، أو على الاقل ان كان فيهم بقية من جاهلية تعود ، وقد تغير من تفكيرهم الكثير وبينهم وبين الاسلام قاب قوسين أو ادنى ، وقد تكاثرت الوفود في العام التاسع من الهجرة حيث عرف عند كتاب السيرة بانه عام الوفود .

يقول ابن اسحاق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك واسلمت ثقيف ، وبايعت رسول الله ﷺ ضربت اليه وفود العرب من كل وجه . ثم يوضح ابن اسحاق اسرار تحرك الدعوة وانتشارها بعد الفتح فيقول : « **وانما كانت العرب تتربص**

بالاسلام امر هذا الحي من قريش . وامر رسول الله ﷺ . وذلك ان قريشا كانوا أئمة الناس وهداتهم . واهل البيت الحرام . وَصَرِيحُ ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام . وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته . فدخلوا في دين الله افواجا ، يضربون من كل وجه ، كما جاء في القرآن الكريم[١] .

وممن قدم على رسول الله ﷺ وفد بني تميم على رأسه عطارد ابن حاجب بن زرارة التميمي . ومعه من اشراف قومه الاقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، والحبحاب بن يزيد ، ونزلت فيهم سورة الحجرات ، واسلموا .

كما قدم وفد بنو عامر ، وفيهم عامر بن الطفيل[٢] .

وبعث بنو سعد بن بكر الى رسول الله ﷺ رجلا منهم يقال له ضرام بن ثعلبة فسأل رسول الله ﷺ عدة اسئلة اجابه رسول الله ﷺ عنها . فاسلم . وعاد مسرعا الى قومه يدعوهم الى الاسلام . فتأبوا اول الامر ، ثم اسلموا جميعا .

ومن الوفود الى رسول الله ﷺ وفد الجارود بن عمر بن حنش اخو عبد القيس على رأس جماعة من قومه فعرض عليهم رسول الله ﷺ الاسلام ، ورغبهم فيه فاسلموا .

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ : ٥٦٠) وما بعدها .

(٢) حاول هذا الرجل ان يغدر برسول الله ﷺ ومعه رفيقه اربد بن قيس . ونصحه قومه بالاسلام . فانصرف وهو يتوعد رسول الله ﷺ فاصابه الطاعون فمات قبل ان يصل الى قومه ، واما رفيقه فاصابته صاعقة . (ابن هشام (٤)

وقدم وفد طيء على رسول الله ﷺ وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل فاسلموا وحسن اسلامهم . واثني رسول الله ﷺ على سماحة فطرهم . وسمى سيدهم (زيد الخير) .

ووفد عدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ فوجد من خلق النبي ومسلكه ما جعله يوقن بنبوته . ويعلن اسلامه بين يديه[1] .

وممن وفدوا فُرْوَةَ بن مُسَيْك المُرَادِي مفارقا ملوك كندة . وعمرو بن معد يكرب الزبيدي في اناس من زبيد . والاشعث بن قيس في وفد من كندة . وصرو بن عبد الله الازدي في وفد من الازد .

وجاءه كتاب من ملوك حمير يعلنون فيه اسلامهم . فرد عليهم ينصحهم . ويشرح لهم زكاة المال . وبخاصة الانعام[2] .

هذه الوفود التي تحدثنا بايجاز عنها تكشف لنا عن خصوصية هذه الفترة في تاريخ الدعوة . وانها في كل يوم تزداد انتشارا . وتكتسب ارضا جديدة . وبدأت حركة من التفاعل الحي بين قبائل العرب ودعوة الاسلام . وكانت تنتهي في الغالب لصالح الدعوة الاسلامية بما تملك من عوامل البقاء . وخصائص السمو . وعوامل الاستمرار التي اشرنا اليها .

---

(١) كانت بنت حاتم وقعت سبية فاحسن رسول الله اليها . واطلق سراحها فلحقت باخيها عدي الذي فر الى الشام ونصحته بالذهاب الى رسول الله ﷺ فحسن استقباله واسلم بين يديه .

(٢) اخبار هذه الوفود مفصلة في سيرة ابن هشام (جـ ٤)

٣ ـ كُتُب رسول الله ﷺ الى الممالك المجاورة .

اصطفى رسول الله ﷺ نفرا من اصحابه ليكونوا حملة لرسائله في الدعوة الى الله ، وهذه الرسائل موجهة الى الامراء والملوك في اطراف الجزيرة العربية وفي انحاء العالم المعروف في ذلك الوقت .

وهذه الحركة المؤثرة في الدعوة والتي تجاوزت حدود الجزيرة العربية تعد احدى ثمرات الحديبية ، كما تؤكد ان الأمن في صالح الدعوة الى الله ، اذ تزداد في ظله انتشارا ، وتكتسب استقرارا . فكما اتاح الامن لوفود القبائل ان تأتي من كل مكان الى رسول الله ﷺ تستوضح ، وتستبين ، وتكتشف ما هو مخبوء عنها ، كذلك اتاح من ناحية اخرى لدولة الاسلام ان تحرك ابناءها الدعاة في كل مكان .

وهناك قضية اخرى هي : عالمية الدعوة .. فما لا شك فيه ان الرسالة للعرب ، جاءت بلسانهم ، وحملها رسول منهم وقد اصطفاهم الله لذلك ، فاذا أسلموا واستجابوا اصبحوا دعاة الى الله في انحاء الارض . كما قال تعالى : ﴿**وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾ (البقرة : ١٤٣) .

ومن بعد الحديبية شملت الدعوة جزيرة العرب كلها ، واخذ رسول الله ﷺ يبين لاصحابه بالقول وبالفعل ان عليهم مسئولية دعوة الناس في مشارق الارض ومغاربها الى الاسلام .

ومن ذلك سرية مؤتة إلى البلقاء بارض الشام لتؤمن طريق

الدعاة الى بلاد الشام ، وكانت بقيادة جعفر بن ابي طالب ، وزيد ابن حارثة ، وعبد الله بن رواحة . واعد جيشا يقوده اسامة بن زيد إلى أرض فلسطين . وارسل عبد الرحمن بن عوف مع جماعة إلى دومة الجندل . وكانت هذه البعوث كلها بمثابة التأكيد على ضرورة التحرك للدعوة إلى الاسلام في خارج الجزيرة العربية .

وكانت كتبه ﷺ الى الولاة والملوك دليلا آخرا على ان الدعوة في الاسلام عقيدة ، وان من مهمة المسلمين ان ينشروا دين الله الحق في المشارق والمغارب .

فلمن كانت الكتب ؟ وماذا كان مضمونها ؟

وقبل الاجابة عن هذين السؤالين اسوق هذا النص لابن هشام :

قال ابن هشام : وقد كان رسول الله ﷺ بعث الى الملوك رسلا من اصحابه وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام .

قال ابن هشام : حدثني من اثق به عن ابي بكر الهذلي قال بلغني ان رسول الله ﷺ خرج عن اصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية ، فقال ايها الناس : ان الله قد بعثني رحمة وكافة ، فلا تختلفوا علي ، كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم فقال اصحابه :

وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال : دعاهم الى الذي دعوتكم اليه فاما من بعثه مبعثا قريبا فرضي وسلم ، واما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل ، فشكا عيسى ذلك الى الله فاصبح المتثاقلون ، وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي

بعث اليها[1] .

واذا اضفنا إلى ذلك رواية ابن سعد في الطبقات ، اذ يقول : ان رسول الله ﷺ قال لاصحابه : «**وافوني باجمعكم بالغداة** . وكان اذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلا يسبح ويدعو ، ثم التفت اليهم فبعث عدة الى عدة ، وقال لهم : **انصحوا الله في عباده فانه من استرعى شيئا من امور الناس ، ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة** » .

هذه الرواية وتلك كلتاهما تؤكدان ان الرسول عليه الصلاة والسلام بين لاصحابه بعد الحديبية ، وقد أمن الطريق وذهبت المخاوف ، ان عليهم مسئولية الدعوة في الآفاق ، خارج جزيرة العرب ، وحذرهم من التثاقل الذي كان من اصحاب عيسىٰ ابن مريم عليه السلام .

وبهذا تتضح اطراف القضية التي اعرضها وهي ان الرسالة للعرب وهم المعنيون بلفظ الناس في القرآن الكريم حملها رسول منهم ، ومعه كتاب بلسانهم ، ودعوة العالم اليها مسئولية تقع على عاتق العرب جميعا لكي تتحقق الرحمة للعالمين التي جعلها القرآن نتيجة لرسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هنا فان الخلاف حول الرسالة أهي عامة للبشر ، أم خاصة بأمة العرب ؟ جاء نتيجة لقصور الفهم ، وعدم شمولية النظرة ، ومن ذلك ما قاله السير وليم ميور : ان فكرة عالمية الرسالة

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ : ٦٠٧) .

قد جاءت فيما بعد . وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والاحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض انه قد فكر فيها . فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا فان عالمه الذي كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب . كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها . وان محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث الى ان مات الا للعرب وحدهم . وهكذا نرى ان نواة عالمية الرسالة قد غرست ولكنها اذا كانت قد اختمرت . ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا الى الظروف والاحوال اكثر منه الى الخطط والمناهج »[1] .

هذا تصور المستشرق وليم ميور القائم على اساس ان محمدا عليه الصلاة والسلام صاحب دعوة اصلاحية اراد بها قومه . ثم خدمته الظروف فانطلق بها اصحابه الى العالم والحق بعيد عما تصوره . لان الاسلام دين الله الذي اصطفىٰ له العرب حملة ودعاة اليه واصطفىٰ له محمدا عليه الصلاة والسلام رسولا . يدعو قومه ويعلمهم . ليقوموا بدورهم بأداء واجب الدعوة كما اشارت لذلك النصوص .

ولا دخل للظروف في هذا الامر . لان الاسلام منهج الحكيم الخبير الذي يعلم كل شيء في الوجود . كما يعلم ما توسوس به نفس الانسان . ويعلم خائنة عينه . وما يخفيه صدره .

وهؤلاء هم الذين ارسل رسول الله ﷺ اليهم يدعوهم الى الاسلام واسماء الصحابة الذين اختارهم رسول الله ﷺ حملة

---

(١) الدعوة الى الاسلام هدمش ص ٣٥ .

لرسائله ، ودعاة أوائل إلى الاسلام .

بعث رسول الله ﷺ رسالة الى قيصر الروم حملها اليه دحية ابن خليفة الكلبي ، رضي الله عنه . وبعث رسالة الى كسرى ملك الفرس ، حملها اليه الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي . وبعث رسالة الى النجاشي ملك الحبشة حملها اليه عمرو بن امية الضمري . وبعث الصحابي الجليل حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس ، ملك الاسكندرية . وبعث عمرو بن العاص السّهمي الى جَيْفَر وعياد ابني الجُلُنْدَي الأزديين ، ملكي عُمان . وبعث سليط بن عمرو احد بني عامر بن لؤي الى ثمامة بن أثال وهوذة بن على الحنفيين . ملكي اليمامة . وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدي ، ملك البحرين . وبعث شجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن ابي شمر الغساني ، ملك تخوم الشام . وبعث المهاجر بن ابي امية المخزومي الى الحارث بن عبد كلال الحميري . ملك اليمن .

وجاء في نص الرسالة ما يؤكد منهج الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة من الحكمة ، وتخير العبارة في اسلوب الدعوة ، ومحاولة غزو قلب المدعو وضميره من كل السبل الموصلة اليه ، وعرض الحق في صورة فيها رفق بلا مداهنة ، وود في غير نفاق وتبصرة صحيحة في غير مجاملة .

وعلى سبيل المثال رسالته الى هرقل ، اذ يقول فيها رسول الله ﷺ : **من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، اما بعد فاني ادعوك بدعاية**

الاسلام . اسلم تسلم . يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأرِّيسيين . ﴿يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله . ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا : اشهدوا بانا مسلمون﴾[1] .

محمد رسول الله .

وهكذا نجد الدعوة الاسلامية في المدينة . تنوعت اسبابها ووسائلها من الكلمة الطيبة . الى الحوار الهادف والجدل الحسن مع اطراف معارضة أو مستهدية . أو الكلمة المكتوبة الى ولاة الامر في انحاء العالم المعمور في ذلك الوقت . تحملهم مسئولية الضلال الذي تعيش فيه شعوبهم أو يقودونهم اليه . وفي فترة من الفترات كانت تتذرع الدعوة بقوة السيف . لترد صلف البغاة . وبطش الظالمين .

ومن ناحية اخرى يتأكد لنا مما اسلفنا ان الاسلام حمل منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة . ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم اليه . وحثهم على الدخول في زمرة المسلمين . لتصلح احوالهم . وتستقيم امورهم .

حركة الدعوة الاسلامية في عهد الراشدين :

بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يتوقف المد الاسلامي بل اخذ طريقه المرسوم . في اطاره الانساني الحكيم . سوى بعض معوقات اعترضت طريقه . وبرغم عنفها وشراستها . تحطمت أمام عزيمة

---

(١) رواه البخاري

الخليفة الاول ، وحكمة الصحابة الذين وقفوا معه . وفي فترة وجيزة قضي تماما على حركة المرتدين في جميع انحاء الجزيرة ، هؤلاء الذين حركتهم الرغبة في استعادة زعامات غاربة ، او الأمل في خلق كيان شخصي أو قبلي عن طريق التنبؤ ، وامام الوقفة الصلبة لجنود الحق تهاوى هذا الضلال الذي حاول ان يطل برأسه بعد وفاة رسول الله ، ولاذت افاعي السوء بجحورها أو قضت في ميدان البغي نحبها . وعادت للدولة الاسلامية في شهور وحدتها وتماسكها . وانصاع الجميع مرة اخرى بيقين لها . فالمرتدين تابوا ، وانابوا بعد ان قضي على ائمة البغي فيها . ومانعوا الزكاة عادوا الى دفعها . بعد ان ارتابوا في ذلك ، ظنا منهم انها لرسول الله ﷺ ، وبناء على هذا فلا ولاء لاحد بعده .

وكان هذا الامر اصعب اختبار يواجه الدولة والدعوة . وتجاوزه المسلمون بتوفيق كبير ، انطلقت بعده الدعوة باقصي ما تملك من قوة وامكانات ، وتدافعت موجات الدعوة شرقا وغربا .

ومما يلفت النظر ان الدعوة في انحاء الارض كانت هدفا مرسوما وغاية واضحة امام الجميع بعد ان مهد لها رسول الله ﷺ بسرية مؤتة ، وارسال عبد الرحمن بن عوف الى ايلياء ، وقيامه عليه الصلاة والسلام على رأس غزوة الى تبوك ، وذلك لتأمين طريق الدعاة ، وتأديب من يقطعون الطريق على الناس في ظل سلطان كسرى أو قيصر .

ولم تشغل هذه الاحداث الكبار خليفة المسلمين الاول عن المضي في هذا الطريق . بل إنه في قلب المحنة . ووسط هذه الظروف الصعبة اصر على إنفاذ جيش اسامة الى الغاية التي أعد لها . وليقوم بالمهام المراد منه تحقيقها . ورفض ابوبكر رضي الله عنه كل رأي يرمي الى ارجاء البعثة . وعنده من الاعذار ما يكفي . كما رفض ايضا المشورة بتغيير القائد لصغر سنه . لانه رأى في ذلك حلا للواء عقده رسول الله لاسباب لا تزال قائمة . كما انه رأى من الكبائر ان يعزل قائدا ولاه رسول الله ﷺ .

وانطلقت بعثة أسامة يشيعها الصديق . وادت رسالتها على الوجه الاكمل . وكان في ارسالها حكمة بالغة ونظر بعيد . لانها اسهمت في اخماد حركة الارتداد . ومنع الزكاة . وتوقف الذين كانوا يريدون منهم الاغارة على المدينة بعد ان رأوا الدولة التي طمعوا فيها ترسل جيوشا وراء حدودها .

ان هناك تفكيرا شائعا بين المسلمين منذ اواخر عهد رسول الله ﷺ بان الروم تستعد لحرب المسلمين . ومن هنا بمجرد اخماد حركة الارتداد . والزام العصاة باداء الزكاة تحركت جيوش المسلمين الى بلاد العراق . وما وراء النهرين بقيادة المثني بن حارثة الشيباني . والى الشام بقيادة ابي عبيدة عامر بن الجراح . بل ان هذه الحركة تمت . ولا تزال فصائل من جنود المسلمين تقاتل المرتدين في معاقلهم . وتحمل العصاة على الطاعة .

وتوفي الصديق بعد خلافة قصيرة . مدتها نحو سنتين . حقق فيها للاسلام ما لو قيس بالسنين لاحتاج الى سنوات وسنوات .

وكانت المعركة قائمة بين المسلمين وجيش الروم .

وتولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلافة المسلمين ، فتم في عهده فتح بلاد الشام ، وسقطت سوريا ، كما تم للمسلمين فتح مصر ، وبلاد النوبة واتجهوا غربا الى برقة . وسقطت عاصمة الفرس (نهاوند) وفر يزدجرد الثالث الى حلوان وذلك بعد هزيمة جيش الفرس في معركة القادسية .

وانشئت في عهده ثلاث مدن كانت مراكز للحركة العلمية . ومنطلقات قوية للدعوة وهي الفسطاط بمصر ، والبصرة والكوفة بالعراق .

وفي عهد عثمان رضي الله عنه انشئت اول بحرية اسلامية . وتم غزو قبرص من الشام لتأمين السواحل الاسلامية العربية من هجمات الرومان كما وقعت المعركة البحرية الشهيرة معركة ذات الصواري . التي استطاعت فيها البحرية الاسلامية بقيادة عبد الله ابن سعد بن ابي سرح ان تنزل هزيمة ساحقة بالاسطول البيزنطي .

ثم امتحنت الدولة الاسلامية بفتنة عارمة ، كان من ضحاياها الخليفة الراشد ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه . وبويع علي بن ابي طالب بالخلافة في جو مشبع بالفتن ، وقد احاطت العواصف العارمة بسفينة الدولة .

وتوقفت حركة الدعوة تماما ، ان لم يكن هذا الخلاف اغرى الآخرين بالتحفز لاسترداد ما اخذه منهم المجاهدون المسلمون ، ليعيثوا في الارض فسادا ، وليبسطوا ايديهم والسنتهم بالظلم

والبغي بعد ان اوقفهم المد العربي الاسلامي عند حدهم . وحرر الشعوب المستضعفة من بغيهم فتحرروا عندما قالوا لا إلـه إلا الله محمد رسول الله .

لون جديد من الدعوة في عهد الراشدين :

في عهد رسول الله ﷺ كانت امور الدولة تلتزم تماما سنن الحق والعدل . وتأخذ الناس بالقسط . وقد اثني القرآن الكريم على هذا المجتمع فقال : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله**﴾ .

وكان عليه الصلاة والسلام يسمع مشورة المشير فيما لم ينزل فيه وحي .

دليل هذا ان الصديق رضي الله عنه . امر خالدا بعد ان فرغ من حرب اليمامة . والقضاء على مسيلمة بان يتوجه الى العراق لمعاونة المثني ثم امره بعد ذلك بان يتجه الى الشام ليقود الحرب ضد جيش الروم المتحفز على ضفاف اليرموك . وقام خالد بعمل عبقري في اجتياز الصحراء من العراق الى الشام مستعينا بالابل الظماء كما فصلته كتب التاريخ .

وفي عهد الراشدين التزمت الدولة المنهج نفسه في رشد وسداد وحكمة وايمان . ومع ذلك فان اجتهادات الخلفاء واعمالهم كانت محل نقد ومراجعة من المؤمنين الواعين الذين علمهم الاسلام ان الحق فوق كل انسان ومن هنا بدا تيار جديد للدعوة هو تقويم ما يبدو للانسان خطأ في امور الدولة .

وسيرة الخلفاء الراشدين حافلة بالكثير من الامثلة .

فعمر رضي الله عنه وهو يعرض سياسته على المسلين قائلا : هل رأيتم فيَّ اعوجاجا ؟ يتصدى له واحد من المسلمين ليقول : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسوفنا ، ويحس عمر رضي الله عنه بغبطة تملأ جوانب نفسه أنْ رأى في المجتمع المسلم هذه القوة الداعية الى الحق التي بها تستقيم الامور .

واستمع لمن يقول له : لا سمع لك علينا ، ولا طاعة حتي تخبرنا عن ابراد اليمن واقنعه عمر ، فما كان من الرجل الداعية الى العدل ان اطمأن لبيان الخليفة الراشد ، وقال له : الآن قل نسمع ونطيع .

وفي غبار الفتنة برزت طائفة من المسلمين قامت على النقد العادل والتوجيه الصادق لكل الاطراف ، ولم تشأ الانتصار لأولئك أو هؤلاء ، وانما كانوا قوامين بالقسط شهداء لله ، فوجهوا النصح لعثمان ، ولعلي ولغيرهما رضي الله عنهم جميعا .

حركة الدعوة في عهد بني أمية

استقام الامر لمعاوية بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين ، وسمي عام ٤١ هـ عام الجماعة حيث عاد الالتئام لصفوف المجتمع المسلم ، واستقر الامر بعض الشيء في المجتمع المسلم ، وان كانت الفرق التي نشأت نتيجة للفتن كالشيعة والخوارج ظلت تؤرق هدوء الدولة ، لكن الفرصة هيئت للدعوة لكي تتحرك في المشارق والمغارب ، ويعود للمد الاسلامي نموه الطيب من اجل هداية البشر ، واستنقاذ الامم والشعوب .

وقد اختار بنو امية دمشق عاصمة للخلافة الاسلامية لحصانة موقعها وبعدها عن آثار الفتن والقلاقل . ومن ناحية حركة الدعوة نراها قريبة من الروم الذين ينقضون بين الحين والآخر على دولة الاسلام ، كما انها قريبة للدعاة الذين ينطلقون شرقا .

وبقيادة عقبة بن نافع تم فتح شمال افريقيا . ووصل المسلمون الى المحيط الاطلسي ، بعد ان انشأ القائد مدينة القيروان جنوب تونس . واستطاع موسي بن نصير بمعونة قائده طارق بن زياد ان يفتح الاندلس . وبذا وصل المد الاسلامي الى اوروبا من الغرب . واستقروا في جنوب فرنسا ، وسويسرا .

وارسل معاوية بن ابي سفيان المهلب بن ابي صفرة سنة ٤٤ هـ الى الشرق فوصل الى كابل .

وارسل الحجاج بن يوسف محمد بن القاسم لغزو الهند . وسار اليها سنة ٨٩ هـ واستولى على احد الموانى الهامة غرب الهند . وبنى به مسجدا ثم واصل فتوحاته حتي بلغ نهر السند . حيث تصدى ملك الهند للمسلمين وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ومقتل ملك الهند .

ومن جهة الشام كانت الشواتي والصوائف تتحرك تباعا لحماية الثغور ، والتصدي للمخطط الروماني الذي كان ينشط عندما تحدث القلاقل داخل الدولة .

وقد نشطت في هذا العصر الدعوة في الداخل . ورأينا مواقف رائعة للعلماء في هذا العصر يراد بها الوقوف في وجه انحرافات الحكام وتذكيرهم بالله وبحقوق الرعية عليهم .

والدعوة الاسلامية في داخل الدولة كانت تحمل طابع التقويم . وأما في خارج الدولة فكانت تحمل طابع الهداية والارشاد الى الاسلام الدين الحق ، واستنقاذ الشعوب من براثن الطغاة .

طابع الدعوة في هذه الفترة :

واعني بها عصر صدر الاسلام وبني امية ، لقد اخذت شكل الصراع المسلح ، مما جعل المستشرقين الحاقدين يصفون هذه الحركة بانها الزام مسلح ، وحمل للناس على الاسلام بحد السيف . دون اتاحة الفرصة للاقناع .

وعلى هذا النحول يقول كيتاني : ولكن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازية ، "تلك الجحافل التي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس لم تكن روح تحمس وغيرة ، ترمي الى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس الى الاسلام ، بل كان الامر على العكس من ذلك فان البواعث الدينية كما يظهر لم تكن قد تسربت الا قليلا في نفوس ابطال الجيوش العربية ، ويعتبر توسع الجنس العربي على اصح تقدير هجرة جماعية نشيطة ، قوية البأس ، دفعها الجوع والحرمان الى ان تهجر صحاريها المجدبة . وتجتاح بلادا اكثر خصبا كانت ملكا لجيران اسعد منهم حظا[1] .

ثم يعلل المستشرق ارنولد لمسارعة النصارى العرب في اطراف الجزيرة الى الاسلام بانه من الانسياق وراء الباعث القومي

(١) الدعوة الى الاسلام لارنولد نقلا عن كيتاني ص ٤٧ .

اذ يقول : ومن ثم لم يكن غريبا ان نجد كثيرا من البدو المسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة ، وان نجد كثيرا من القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قرونا نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالاسلام[1] .

وهذا تصور خاطئ ، لاسباب متعددة .

اولها : سلوك هؤلاء الدعاة في البلاد التي دانت لهم وسياستهم العادلة . وحكمهم بالقسط ، وتأمين الناس على اموالهم يرد كل دعوى تقال انهم تحركوا بحثا عن الطعام ، وفرارا من الجوع والحرمان .

ثانيها : الشعوب في كل بلد فتحها العرب كانوا يرحبون بالفاتحين يلقون اليهم بالسلم ، وفي بعض البلدان كانوا يتعجلون قدوم الفاتحين فرارا من ظلم الروم والفرس ، وسعيا الى عدالة الاسلام التي ملأت اخبارها كل مكان .

ثالثها : اتجهت همم المسلمين في البلاد المفتوحة الى العمران والبناء . والنظر في حوائج الناس ، وحل مشكلاتهم ، ورفع الظلم عن المظلوم .

رابعها : انهم كانوا دعاة بما تحمله كلمة الدعوة من معني ، وبما تفرضه الدعوة من اسلوب حكيم ، وحاوروا الامم المفتوحة حوار الند للند حتي اسلموا عن اقتناع ورضا بل تجاوزوا ذلك الى تعلم اللسان العربي ليكونوا اكثر فقها ، واشد تعمقا في دراسات

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

الاسلام حتي وجدنا من ابناء الفرس من بذوا في العلوم العربية والاسلامية . وكانوا ائمة فيها . والمجبر علي شيئ يرفض كل القيم الثقافية لمن اجبره ، كما ان الذين يخرجون في هجرة جماعية بحثا عن المرعى الخصب يأكلون اللحم ، ويعرقون العظم ، ويأتون على الاخضر واليابس ولا يرعون في البلاد إلاًّ ولا ذمة ، كما فعل التتار في القرن السابع ، وكما فعل الاستعمار الاوروبي في القرن التاسع عشر .

ولم يكن العرب بهذه الصورة بل كانوا دعاة اضطرتهم الظروف لحمل السيف ضد ائمة البغي الذين وقفوا في وجه دين الحق والعدل حتي لا يتحرر العبيد ، والمستضعفون فيهم ولتظل دولة الظلم قائمة .

خامسها : مما يؤكد انهم دعاة ، انهم كانوا يبدأون بالدعوة ، فان كان من دعوهم من اهل الكتاب خيروهم بين الاسلام والبقاء على دينهم على اساس ان يدفعوا الجزية ، ضريبة للدولة التي ستحميهم وتدافع عنهم وترعى مصالحهم ، في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلم ، وان رفضوا الامرين . واصروا على العداء كانت الحرب حتي لا يكونوا فتنة ، وحتي يكون الدين كله لله .

وان كانوا من المشركين ونحوهم . فلا يقبل منهم الا الاسلام ما داموا من ابناء الجزيرة العربية ، لان الشرك غير معترف به . ولا ينبغي ان يظل دينا في امة اقيمت عليها الحجة بلسانها . ممثلة في القرآن ، وقوة البيان وحكمة التشريع ، وصدق الخبر .

وفي خارج الجزيرة العربية لا نتصدى للمشركين الا اذا

هددوا دولة الاسلام او كادوا لها ، عند ذاك لابد لجيش الدعوة ان يتصدى حفاظا على الدعوة وتأمينا للدعاة . فالظروف التي احاطت بالدعوة وعاشها الدعاة اعطت دعوتهم هذا الطابع العسكري .

سادسها : ظاهرة التسامح التي بدت واضحة في سلوك الفاتحين تؤكد انهم كانوا دعاة ، ولم يكونوا غزاة ، وان اهتمامهم الاول هو الدعوة في رفق وحكمة وفي غير بغي ولا تجبر ، وسأسوق الشواهد من كلام المستشرقين انفسهم ، ومنهم من نقدنا افكارهم وتصوراتهم . ومن هذه الامثلة :

(أ) هذا الحوار الذي يرويه الطبري في تاريخه[1] بين خالد ابن الوليد ونصارى الحيرة ، وقد حاصرهم وبعثوا له سفراءهم يسألونه عن شروط تسليم المدينة فقال لهم خالد : ما انتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدى وقد فوض اليه الوفد ان يتحدث بلسانهم : بل عرب عاربة . واخرى متعربة قال خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا . وتكرهوا امرنا ، قال عدى ليدلك على ما تقول ان ليس لنا لسان إلا العربية . قال له خالد : صدقت اختاروا واحدة من ثلاث :

١ ــ ان تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ان نهضتم وهاجرتم وان اقمتم في دياركم .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ١ .

٢ ـ أو الجزية .

٣ ـ أو المناجزة والمنابذة . فقد والله اتيتكم بقوم هم على الموت احرص منكم على الحياة .

(ب) يقول السير توماس ارنولد : وقد امد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثا في الاسلام بما ينبغي ان يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين ، لأنه لما كانت القبائل باجمعها تدخل في الاسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري ان يأخذوا الحيطة اتقاء ما يحدث من اخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية . وكان من الطبيعي ان تكون هذه الاخطاء مصدر خوف اذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة ، ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مهنتهم ان يعلموا الناس القرآن ، ويفقهوهم في الدين ، وكذلك امر العمال ان يستيقنوا من ان جميع المسلمين صغارا وكبارا يواظبون على حضور صلاة الجماعة لاسيما في ايام الجمع وشهر رمضان ونستطيع ان نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الاسلام حديثا من اهمية من ان هؤلاء الذين عهد اليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد اليهم بالولاية على بيت المال [1] .

(جـ) كانت تسود بلاد الشام قبل الاسلام انقسامات طائفية

---

(١) في كتاب الخراج لابي يوسف ، وفتوح البلدان للبلاذري ما يفيد اخذ الجزية من المجوس والزرادشتيين ، مثل اهل الكتاب . وفي الحديث سنوا بهم سنة اهل الكتاب غير ناكحي نسائهم . ولا آكلي ذبائحهم .

بين الارثوذكس واليعاقبة اخذت طابعا دمويا . واضطهد بعضهم بعضا فجاء الفتح الاسلامي . فشملهم بروح من الود والتسامح . وانقذهم من جحيم الفرقة . وهذا المعني قرره ميخائيل الاكبر بطريق انطاكية اليعقوبي في القرن الثاني عشر بعد أن سرد اضطهادات هرقل : وهذا هو السبب في ان الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت . والذي يديل دولة البشر كما يشاء . فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ـ لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا . وسلبوا ديارنا في كافة ممتلكاتهم وانزلوا بنا العقاب في غير شفقة ولا رحمة ارسل ابناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على ايديهم من قبضة الروم . وفي الحق أننا اذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا واعطائها لاهل خلقيدونية . فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم . ولما اسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكناس التي وجدت في حوزتهم ومع ذلك لم يكن كسبا هينا ان نتخلص من قسوة الروم وأَذَاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا . وان نجد انفسنا في امن وسلام[1] .

(د) يقول الازدي : لما نزل الجيش الاسلامي وادي الأردن . بقيادة أبي عبيدة . كتب المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون يا معشر المسلمين انتم احب الينا من الرومان وان كانوا على ديننا . انتم اوفىٰ لنا . وأرأف بنا . وأكف عن ظلمنا .

---

(١) الدعوة الى لاسلام ص ٥٣

واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على امرنا وعلى منازلنا .

ويقول البلاذري : اغلق اهل حمص ابواب مدينتهم دون جيش هرقل . وابلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم احب اليهم من ظلم الاغريق وعسفهم[1] .

(هـ) الشروط التي وضعها عمر بن الخطاب لتسلم بيت المقدس وفيها يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله امير المؤمنين اهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها . ولا من صليبهم ، ولا من شيئ من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم[2] .

(و) لا تزال كتب التاريخ تحمل بين صفحاتها كلمة الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز إلى عامله على مصر ، وقد طلب اليه ان يضاعف ما يجمع من مال ، فقال : ان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا .

وبهذا يتأكد عنصر الدعوة في تحرك العرب المسلمين شرقا وغربا .

(ز) يقول المستشرق ارنولد مفسرا الجزية في الاسلام تفسيرا قويما معتمدا على مراجع تاريخية اسلامية اصيلة : ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحين كما يرى بعض

---

(١) فتوح الشام لمحمد بن عبدالله الازدي (ط/كلكتا) .

(٢) الطبري جـ ١ .

الباحثين على الظن لونا من العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام . وانما كانوا يؤدونها مع سائر اهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش . في مقابل الحماية التي كفلتها سيوف المسلمين ، ولما قدم اهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة « ان يمنعونا واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم » وكذلك حدث ان سجل خالد في المعاهدة التي ابرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا » . ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر ، لما حشد الامبراطور هرقل جيشا ضخما يصد قوات المسلمين ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ان يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي احدقت بهم ، فلما علم بذلك ابوعبيدة قائد العرب ، كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بان يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب الى الناس يقول : « وانما رددنا عليكم اموالكم ، لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم ، وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » .

وبذلك ردت مبالغ هائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : « ردكم الله علينا ، ونصركم عليهم ، (أي على الروم) . فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ،

واخذوا كل شيئ بقي لنا »[1] .

الدعوة الاسلامية في عهد العباسيين

قامت دولة العباسيين عام ١٣٢ هـ بعد حركة دعائية واسعة قام بها الفرس بقيادة ابي مسلم الخراساني الذي كانت تشده اطماع فارسية وتستحوذ على نفسه احقاد شعوبية ونجحت الحركة وسقطت دولة بني امية واعلن قيام دولة بني العباس في مدينة الانبار بالقرب من الكوفة وقد ادرك الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور ما وراء الداهية ابي مسلم فقتله . وظلت الدولة العباسية قائمة سياسيا حتي بعد منتصف القرن السادس الهجري ٦٥٦هـ .

لكن كيف تحركت الدعوة الى الاسلام في هذه الفترة ؟ والى أي مدى ؟ . لابد لنا قبل الاجابة عن هذا السؤال ان نشير الى الظروف التي احاطت بهذه الدولة .

١ ـ قامت الدولة العباسية بمساعدة العناصر الفارسية ، فاستأثروا بالمناصب الهامة ، وتأخرت العناصر العربية أو أخرت . وظهرت للفرس مطامع غلبوا فيها اهواءهم القومية على الدين الذي آمنوا به ، والدولة التي اعلنوا ولاءهم لها ، وكان لهذه الاطماع آثارها في استقرار الدولة وحركة الدعوة ، فالحرب عند نهر الزاب بين السفاح ومروان بن محمد لم تكن في حقيقتها الا حربا بين العرب والفرس ، والمعركة بين الامين والمأمون لم تكن حربا بين أخوين

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٥٨ ، وراجع الطبري جـ ١ ، والخراج لابي يوسف .

حربا بين اخوين وانما هي في جوهرها حرب بين العرب والفرس. وادرك بعض الاذكياء من خلفاء العباسيين هذه الخطورة فاتخذوا مواقف حاسمة كما فعل المنصور مع ابي مسلم، وكما فعل الرشيد مع البرامكة.

٢ ـ من القلاقل التي واجهت الدولة خروج عبد الله بن علي. عم الخليفة ابي جعفر المنصور وواليه على الشام، معلنا انه احق بالخلافة ومطالبا بها لنفسه، وسير المنصور جيشا للقضاء عليه بقيادة ابي مسلم الخراساني.

٣ ـ ثورات العلويين ضد العباسيين.

كان العلويون يرون انهم احق بالخلافة، وعندما طالب بها العباسيون كانوا في اول الامر يدعون بها لابناء عمهم العلويين. وعندما قامت دولة بني العباس عدهم العلويين مغتصبين لها كالامويين. فخرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥هـ، وعزل والي المدينة من قبل المنصور، ووجه اليه المنصور جيشا كبيرا بقيادة ابن اخيه عيسي بن موسي وقتل محمد ابن عبد الله، وكان معروفا بالنفس الزكية لسمو فكره وزهده. ثم خرج ابراهيم بن محمد بالكوفة، وقتل ايضا في خلافة المنصور.

لم تتوقف ثورات العلويين ضد حكم بني العباس. فعندما اساء والي الخليفة المهدي على المدينة الى بني العلويين سار اليه الحسين بن علي بن الحسن، واعلن اعتراضه على سياسته، ثم رحل عن المدينة قاصدا مكة، وقبل دخوله الى مكة دار بينه وبين العباسيين قتال شديد انتهى بقتله.

وفي عهد الرشيد خرج ببلاد الديلم يحيي بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن ابي طالب ، فكتب اليه الرشيد بالامان ، ثم دبر لقتله ، وفر اخوه ادريس بن عبد الله الى مصر ، ثم المغرب ، فدبر الرشيد لقتله ، فالتف اتباعه حول ابنه الصغير ، وبايعوه بالخلافة ، واليه تنسب دولة الادارسة .

وفي فترة الحرب بين الامين والمأمون ، نشطت حركة العلويين وخرج بالكوفة محمد بن ابراهيم العلوي سنة ١٩٩هـ .

٤ ـ غزو الفكر الفارسي الوثني للدولة الاسلامية .

في عهد العباسيين نشط الفكر الوثني الفارسي ، تراوده احلام العودة الى ملك كسرى ودين زرادشت ، وكان هذا الاتجاه له مخططان احدهما سياسي والآخر فكري ، وشجعهم انهم اصحاب اليد في تمكين بني العباس .

من الناحية السياسية فشل هذا المخطط بالقضاء على ابي مسلم الخراساني ، وعلى النفوذ الفارسي في عهد الرشيد ، وبقيت آثاره في تشجيعهم لثورات العلويين ، وحركات التشيع لتتاح له الفرصة لاعادة المجد الغارب ، أو على الاقل تبقي لهم السلطة في ظل الدولة التي تقوم .

ومن الناحية الفكرية رأينا في عصر المنصور جماعة من الفرس يزعمون ان ابا مسلم لم يمت ، وكونوا لانفسهم طائفة عرفت باسم (المسلمين) نسبة الى ابي مسلم ، وزعمت انه سيظهر في يوم من الايام . وكثر اتباع هذه الطائفة في بلاد ما وراء النهر ، حتي قضي عليهم الخليفة ابو جعفر المنصور .

* **طائفة الراوندية ١٤٦هـ :**

اسلوب فكري جديد للفرس لتحقيق هدفهم في استعادة السلطان وقد أخذ حيلة ماكرة . ففي قرية (راوند) القريبة من اصفهان ظهرت طائفة اعلنت تشيعها لبني العباس ، بل ان بعضهم اعلن ان ابا جعفر المنصور اله وكانت هذه حيلة يراد بها الاخذ بثأر ابي مسلم . وتأليه البشر منهج فارسي قديم ، واعادوه مرة اخرى في ظلال الاسلام الذي كسوه باهوائهم مسحة وثنية باسم التصوف أو التشيع . لكن ابا جعفر فطن لحيلتهم ، وقضي عليهم .

* **الزنادقة :**

في عهد الخليفة المهدي ظهر هذا الفريق من الفرس الذين اسلموا ظاهرا ، واخذوا في السر يروجون لدينهم القديم ، ويحيون ما ارتبط به من افكار وآداب ، واتجاهات وثنية يرفضها الاسلام تماما . فتصدى لهم المهدي ، واقام قاضيا خصصه لمحاكمة الزنادقة . واستمرت حركة المقاومة طيلة عهد المهدي ثم الهادي . ثم الرشيد ، ثم المأمون .

* **ثورات اخرى :**

كان من شأنها اضطراب الامن ، واعاقة المد الاسلامي ، وايقاف حركة الدعوة . منها : ثورة الخوارج في عهد الهادي . وثورة الزط . وبابك الخرمي في عصر المأمون ، وثورات شتي في عصر المعتصم والواثق ، وعبث الاتراك بالدولة منذ عهد المتوكل .

وظهور القرامطة في عصر المعتضد .

لم تتوقف الصعاب التي واجهت خلافة العباسيين ، بل تكاثرت عليها الظروف التي اوقفت أوكادت ـ حركة الدعوة الاسلامية والمد الاسلامي طيلة الفترة الطويلة التي امسكوا فيها بزمام العالم امساكا فعليا حتي منتصف القرن الثالث ، وشكليا بعد هذا حتي منتصف القرن السابع .

واذا كانت المعوقات التي اشرنا اليها قد تمت خلال العصر العباسي الاول فاننا في العصر العباسي الثاني رأينا سيادة الترك على خلافة المعتصم ، وقلت هيبة الخليفة ، واصبح السلطان بيد غيره من العناصر الاجنبية التي تسللت الى قصور الخلافة .

ونجح الفرس في اقامة دول اسلامية خاضعة لنفوذهم وهي : الدولة الطاهرية ، الدولة الصفارية ، الدولة السامانية ، الدولة البوهية . وكلها شرق آسيا .

واقام العرب الدولة الحمدانية في الشام والعراق بين حلب والموصل . وقامت دولة الطولونيين في مصر ثم الاخشيديين ، ثم الفاطميين ، ثم الايوبيين .

وفي شمال افريقيا ، قامت دولة الادارسة ، ثم الاغالبة ، ثم الفاطمية . واقام الترك في شرق آسيا : الدولة الغزنوية والسلجوقية .

تأثير هذه الظروف على حركة الدعوة :

ان الظروف التي عاشتها الدولة العباسية من نشأتها حتي

سقوطها ومنها الفترة التي كانت فيها قوية ، فتية لم تمكنها من الاستمرار في حركة الدعوة ، ومواصلة الجهاد في الشرق والغرب . وهي كما اشرت ثورات داخلية متعددة ، يقوم بها الخوارج والعلويون ، أو هي تعبير عن مخطط تخريبي فارسي كحركة الراوندية ، وبابك الخرمي ، والقرامطة .

اضف الى ذلك هذه الامواج البشرية التي طفحت على الدولة من الهند ، فيها الرجال والنساء ، وقطعت الطرق ، وسلبت الناس . وعرفت بثورة الزط ، وقضي عليها المعتصم ، وسار بهذا المد البشري الى منطقة الحدود بين الدولة الاسلامية والروم ، وقتل منهم الكثير ، كما قتلوا الكثير ، وكانوا نواة لطوائف الأغجار والنورة التي ملأت اوروبا .

ولم يتوقف تهديد الرومان للدولة ، محاولة منها انتقاص اطراف الدولة . وتصدى خلفاء الدولة في عصر قوتها بحزم وقوة لهذه المحاولات الرومية . وقد عرف البيزنطيون بالاستخفاف بالعهد والمواثيق . فنقضت ابريني امبراطورة بيزنطة عهدها مع المهدي . واغارت على أرض المسلمين ، فتصدى الرشيد لهم ، وردهم واستولى على مدينتين روميتين ، واستولت سفن الرشيد على قبرص وكريت . ثم نقضوا العهد فخرج لهم الرشيد مرة اخرى ، وانتهى الامر بالصلح ، ودفعت ابريني الجزية .

ثم خلعت ابريني ، وتولى مكانها (نقفور) الذي ارسل يهدد الرشيد بخطاب اساء فيه الادب ، اذ يقول فيه : من نقفور ملك الروم الى هارون الرشيد ملك العرب . اما بعد فان الملكة التي

كانت قبلي اقامتك مقام الرخ ، واقامت نفسها مقام البيدق . فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقا ان تدفع اضعافه اليها . لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من اموالها ، وانقذ نفسك بما يقع به المصادرة لك . والا ،فالسيف بيننا وبينك » .

وغضب الرشيد من هذا الخطاب ، ولم يستطع احد ان يكلم أو يشير عليه حتي كتب في سورة غضبه هذا الخطاب على ظهر خطاب نفقور : بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، اما بعد فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

وتحرك الرشيد على رأس جيش كبير ، لقن فيه نقفور درسا وضع غروره عند حد حتي طلب الصلح بنفسه ، وتعهد بدفع الجزية التي تأبي عليها ثم عاد فنقض عهده ، فرجع اليه الرشيد وهزمه ، فطلب الصلح ، واجابه الرشيد ، وتكرر منهم النقض ، وتكرر من الرشيد العفو ، وفي العام التالي انقض نقفور في غدر ووحشية على الامارات الاسلامية غير محترم للعهود فارسل اليه ابنه المأمون واستولى على المدائن المهمة في آسيا الصغرى وهنا انصاع نقفور ، ودفع الجزية عن نفسه وافراد اسرته وبطارقته واهل بلده بما يساوي ثلاثمائة الف دينار .

انها صورة مشرقة ومشرقة للحركة الاسلامية التي لا تعرف البغي ولا يعنيها ان تبغى ، فالعفور ادني الى خلقهم من الانتقام . والصلح اقرب اليهم من الحرب ، لانهم اهل دعوة وطلاب

هداية .

وما حدث في عهد الرشيد ، وهي ازهى فترة في تاريخ الدولة العباسية يجعلنا نتصور الى اى حد كانت هذه العقبات معوقة الى حد كبير من حركة الدعوة ، فماذا تفعل الدولة ازاء هذه الظروف العاتية ؟

* مؤامرات الفرس المتصلة .
* الاحزاب المعادية لسياسة الدولة .
* الفرق المنحرفة .
* غزو الفكر الاجنبي .
* تدخل الترك بما لهم من اساليب همجية .
* انتهاز الروم لهذه الظروف ، وانقضاضهم على الدولة متي سنحت الفرصة .

وكلما هدأت الامور اتيحت الفرصة للدولة ان تتحرك ، كما فعل الرشيد بالنسبة لنقفور ، ولولا القلاقل لسقطت القسطنطينية بين يديه وكما فعل المعتصم الذي استولى على عمورية .

وتوقفت الدعوة الاسلامية في خارج حدود الدولة تماما ، بل اخذت الدولة في الانهيار حتي منتصف القرن السابع حيث بدأ الغزو الاجنبي الشرس يطبق على الدولة من الشرق ممثلا في حركة التتار ، ومن الغرب ممثلا في الانقضاض الصليبي على المسلمين في الاندلس ، وفي الغزوات الصليبية لمصر والشام .

* وفي داخل المجتمع الاسلامي ، كان للدعوة هذه التيارات :
* تيار يواجه الفكر الدخيل ، مثل المناظرات والمجالس التي تتم

باشراف الخلفاء وكبار الدولة تناقش الملاحدة واصحاب المذاهب المنحرفة وجدل اصحاب الفرق ، اذ يحاول كل منهم الانتصار لمذهبه أو لطائفته . واكثرها كان له آثار سلبية أوهنت الدولة ، واضعفت عزم المجتمع المسلم ، اما مجادلة الملحدين والفلاسفة . فكان له اثر بناء في تقويم الفكر المسلم . وتعديل مسيرته مما يجعلنا نستطيع ان نقول انه لون من الدعوة ، وصورة من صور الحركة الاسلامية النامية ، وان كان في اطار المجتمع ، وتحتويه حدوده .

ويذكر البلاذري ان الخليفة المأمون بعث برسائل الى الكفار في جميع اجزاء مملكته ، يدعوهم الى الاسلام ، وكانت دعوته تتسم بالحيدة والنزاهة . وكان هذا هو الاسلوب الذي اخذ به المأمون نفسه في حياته وفي الدعوة ايضا .

ويذكر ابن النديم في الفهرست انه قدم شخص يدعى (يزد انخيت) على بغداد وهو زعيم المانوية ، وعقدت مناظرة بين المسلمين وبينه ، وافحمه المسلمون وحاول الخليفة ان يقنعه بالاسلام ، ولكن الرجل ابي ، وقال نصيحتك يا امير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم . ولم يبد الخليفة شيئا من الامتعاض لرفضه الاسلام بل انه اوكل به من حفظه من العامة الذين تحرشوا به[1] .

ويثني المستشرق توماس ارنولد على اسلوب دعوة المسيحيين

(١) الفهرست لابن النديم (١ : ٣٣٨) نشره فلوجل سنة ١٨٧١ في ليبزج .

الى الاسلام في عصر المأمون . ويشيد بما رآه خاصة وأن أول وثيقة وصلت الينا تكشف عن خصائص الدعوة وترجع الى ذلك العهد (٨١٣ ــ ٨٣٣هـ) ــ (١٩٨ ــ ٢١٨م) . وهذه الرسالة كتبها عبد الله بن اسماعيل الهاشمي الى عربي مسيحي هو عبد المسيح بن اسحاق الكندي . وفيها يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . اما بعد . فقد افتتحت كتابي اليك بالسلام عليك والرحمة تشبها بسيدي وسيد الانبياء محمد رسول الله ﷺ . فان ثقاتنا ذي العدالة عندنا . الصادقين الناطقين بالحق . الناقلين الينا اخبار نبينا عليه السلام قد رووا لنا عنه ان هذه كانت عادته . وانه كان ﷺ اذا افتتح كلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته اياهم . ولا يفرق بين الذمي منهم . والأمي . ولا بين المؤمن والمشرك . وكان يقول : اني بعثت بحسن الخلق الى الناس كافة . ولم ابعث بالغلظة والفظاظة » .

ثم يعلق ارنولد على هذه الرسالة فيقول : وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه ان يدخل في الاسلام . وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود . وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر . وتحتل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الاسلامية المبكر مكانا يكاد يكون فريدا في بابه[١] .

ويذكر المسعودي في سنة ٨٧٣هـ أواخر القرن الثاني للهجرة انه تحول الى الاسلام عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٧٧ ٧٨

ناصر الحق ابي محمد ، وفي القرن التالي دعا الحسن بن علي الذي ينتمي الى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر ـ الخزر الجنوبي ـ اهالي طبرستان والديلم ، وكان بعضهم يعبد الاوثان . ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية فاجاب دعوته كثير منهم على حين اصر غيرهم على كفره ، وكان الحسن بن علي هذا على قدر من الذكاء والعلم ، كما كان ملما بمبادئ المذاهب الدينية المختلفة[1] .

ويذكر ابن خلكان ان الشاعر المشهور ابا الحسن مهيار الديلمي كان من عبدة النار واسلم بتأثير استاذه في فن الشعر ، وهو الشريف[2] .

* وتيار آخر يواجه المظالم ، ويتصدى لانحرافات كبار القوم في المجتمع المسلم .

وتسجل كتب الادب والتاريخ مواقف لدعاة تصدوا لانحرافات الكبار في العصرين الاموي والعباسي . ومن ذلك :

دخل اعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عظني يا اعرابي فقال : كفي بالقرآن واعظا ، اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ ثم قال : يا امير المؤمنين هذا جزاء من يطفف الكيل والميزان ، فما ظنك بمن اخذه كله ؟.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ ٩ .
(٢) وفيات الاعيان جـ ٣ .

وقال اعرابي لاخيه : «يا اخي انت مطلوب وطالب . يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته . فكأن ما غاب عنك قد كشف لك . وما انت فيه قد نقلت عنه . فامهد لنفسك واعد زادك» .

وخرج الحجاج يوما فاصحر (دخل في الصحراء) وحضر غداؤه . فقال اطلبوا من يتغدى معنا . فطلبوا فلم يجدوا إلا اعرابيا في شملة . فاتوه به فقال له : هلم . قال له : قد دعاني من هو اكرم منك فأجبته . قال : ومن هو؟ قال : الله تبارك وتعالى . دعاني الى الصيام فأنا صائم . قال صوم في مثل هذا اليوم على حر . قال : صمت ليوم هو أحر منه . قال : فافطر اليوم . وصم غدا . قال : ويضمن لي الامير ان اعيش الى غد؟ قال : ليس ذلك إليّ . قال : فكيف تسألني عاجلا بآجل ليس اليه سبيل؟ قال : انه طعام طيب . قال : والله ما طيبه خبازك ولا طباخك . ولكن طيبته العافية . قال الحجاج : تالله ما رأيت كاليوم . اخرجوه عني .

ومنها مواجهة عبد العزيز بن مسلم الكناني لبشر المريس في مجلس المأمون . ومواجهة الامام احمد بن حنبل للمأمون في غلوه في الاعتزال ومصادرته لحرية التفكير . واجباره العلماء على القول بخلق القرآن .

كما يسجل التاريخ مواقف عظيمة للامام مالك مع ابي جعفر المنصور . ورفض الامام ابي حنيفة لمنصب القضاء .

وكان من شأن الرشيد ان يقول لشاعره ابي العتاهية : ذكرنا

فقال له مرة قصيدة ملأها بذكر الموت والرغبة عن باطل الحياة الدنيا فبكى الرشيد ، فتصدى له الفضل بن يحيي . وقال لقد كدرت على امير المؤمنين مجلسه ، بعد أنْ عنَّفه ، فقال له الرشيد دعه فانه رآنا في نوم الغفلة فاراد ان يوقظنا .

لقد الفت كتب في مواقف العلماء بين يدي الملوك والخلفاء تعلمنا ان النصيحة يهش لها المؤمنون الصادقون ، والخلفاء المخلصون ، فيتألمون لما فرطوا ، ويعملون على اصلاح ما افسدوه . وتقويم ما انحرفوا فيه ، ومنهم من كانت تأخذه العزة بالاثم فيشيحون بوجوههم عن الناصحين ان لم يفكروا في اذاهم والانتقام منهم . ومن الخلفاء من كان يطلب العلماء يرجو لديهم الموعظة والذكرى .

على ان ما نسجله هنا هو ان حركة الدعوة في عهد العباسيين كانت من هذا النمط الذي يدور حول نقد الولاة ، والخلفاء والحكام ، وعرض مسالكهم على الاسلام . وان كانت هناك دعوة في خارج حدود الدولة فانها كانت تتم بوسائل فردية يأتيها الافراد المسلمون بجانب ما يقومون به من اعمال وأسفار وتجارات . يدفعهم لذلك يقينهم بان الدعوة في الاسلام عقيدة ، وان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر منهج حياة وحيوية للمجتمع المسلم يتحقق به حياته واستقراره ، واستمراره ، وسنتحدث عن هذه الحركة حديثا مستقلا فيما بعد .

الغزو العسكري واثره في حركة الدعوة :

تحدثت عن الظروف المتميزة التي احاطت بالدولة العباسية في

عصرها الاول . والتي تزايدت وتفاقمت في عصرها الثاني عندما تقسمت الى دويلات مختلفة في شرق العالم الاسلامي وغربه حتي انتهى امر الدعوة خارج بلاد الاسلام الى مجرد التصدي لمن ينقضون بين الحين والآخر على اطراف الدولة . لكن أمر الدعوة داخل الدولة ظل قائما . وقد اهتم له الخلفاء والعلماء . وعامة الناس وكانت له تيارات اشرنا اليها .

وفي القرن الرابع الهجري . والحادي عشر الميلادي تعرضت بلاد الشام لغزوات الصليبيين الذين حركهم تعصب اسود . واثارت الكنيسة في اوروبا مشاعر الناس مصورة لهم ان الاماكن المقدسة في خطر . بالاضافة إلى شعور الامبراطور البيزنطي بالخطر عندما قامت دولة السلاجقة القوية على حدود بلاده . واستولت على بيت المقدس واساء بعض الافراد معاملة الحجاج المسيحيين . ورأى البابا انها فرصة سنحت لبسط نفوذه على الكنيسة الشرقية . كما رأى الاشراف والاقطاعيون في اوروبا انها مجال لاقامة امارات لهم في الشرق . وآخرون انضموا للحملات باغراء الحياة الاقتصادية المزدهرة في الشرق .

وتوالت الحملات . وتعرضت لمخاطر . ثم استولت على بيت المقدس واقامت امارات في انحاء الشام . ثم انتقلت الى مصر . وهيأ الله للأمة الاسلامية صلاح الدين الايوبي الذي تصدى لهذه الحملات . وزلزل كيان الصليبيين في الشام . وقضي على اكثر اماراتهم وعلى رأسها بيت المقدس . كما تحطمت الحملات على صخرة المقاومة الاسلامية في مصر . ولم ينقض القرن السابع

الهجري الا وقد انتهت تماما آثار الصليبيين في عهد السلطان المملوكي الاشرف خليل .

هذه الحروب الصليبية التي توالت على الشرق الاسلامي نحو قرنين من الزمان كانت مسوغا جديدا لاستمرار توقف المد الاسلامي بالصورة العسكرية وهي كما قلنا غير باغية ولا عادية ، لكنها اتاحت للدعوة الفرصة للانتشار بين كثير من أبناء اوروبا ، الذين عاشوا عن كثب بين المسلمين ، وخبروا أخلاقهم .

وسأترك المستشرق أرنولد يتحدث عن تحول الأوربيين الى الاسلام اثناء الحروب الصليبية . قال وهو يتحدث عن انحرافات الكنيسة الشرقية واقبال القساوسة على الاسلام ، مع غيرهم من المسيحيين الوافدين . يقول :

بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم الى اهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الامم اللاتينية ، واستقروا في مملكة بيت المقدس ، وسائر الولايات التي اسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان ، وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات الى الاسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء .. ففي الحرب الصليبية الاولى مثلا انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الالمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى (رينولد) وحاصرهم السلطان ارسلان السلجوقي في احدى القلاع ، وتظاهر هو وخاصة اتباعه بالقيام بهجوم على محاصريهم من الخارج ، فتركوا رفاقهم الناعسين وانتقلوا إلى الأتراك

حيث اعتنقوا الاسلام بينهم[١] .

ثم يواصل توماس ارنولد حديثه . ويصف مصير الحملة الصليبية الاولى وكيف اسلم عدد كبير من افرادها وماذا كانت بواعث اسلامهم فيقول : وكان موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس . لو ان منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين . ويستدر شفقتهم . فواسوا المرضي . واغاثوا الفقير والجائع الذي اشرف على الهلاك . وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي ابتزها الاغريق بالقوة أو الخداع ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم . فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار[٢] وبين ما عانوه من قسوة اخوانهم المسيحيين من الاغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل حتي ان كثيرا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض ارادتهم .

وكما يقول المؤرخ القديم[٣] : لقد جفوا اخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم . ووجدوا الامان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم ولقد بلغنا ان ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد ان تقهقروا الى صفوف الاتراك . آه انها لرحمة اقسي من الغدر . لقد منحوهم الخبز ولكنهم سلبوهم عقيدتهم . وإن كان من المؤكد

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٨١ .

(٢) الكاتب يعني بالكفار من هم كفار من وجهة نظره . وهم المسلمون

(٣) ينقل ارنولد هذه الكلمات من مؤرخ مسيحي قديم صاحب هذه الحملة الصليبية والحقد واضح في كلمات المؤرخ المسيحي .

انهم لم يكرهوا احدا من بينهم على نبذ دينه . وانما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات[1] .

ونلحظ في كلمات المؤرخ القديم الذي نقل عنه ارنولد انه يتحدث بعاطفته ، ويشوب كلماته مسحة من التعصب ولكنه لم يستطع برغمها انكار الحقيقة وهي ان هذه الآلاف التي اسلمت لم يرغمها احد على اسلامها وهذا يشهد للاتراك السلاجقة المسلمين الذين دمروا الحملة الصليبية الاولى .

وعلى اساس القانون الالٰهي **﴿وعسىٰ ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾** والحكمة القائلة : رب ضارة نافعة . رأينا الصراع الدامي الذي اشعلته الحملات الصليبية تباعا على ارض مصر والشام قد افاد الدعوة الاسلامية ، واعطاها اكثر مما اخذ منها . فظروف الحملات كما اشرنا والاحتكاك المباشر بالخلق الاسلامي ، من افراد المسلمين ومن قياداتهم بهر هؤلاء الذين جاءوا من اوروبا تستعر قلوبهم بجحيم التعصب ، وامام الواقع المسلم تحول الآلاف منهم الى الاسلام عن رضا واقتناع .

وكل مؤرخي الحملات الصليبية من الاوربيين يقررون باجماعهم ظواهر التحول الى الاسلام ، بل يؤكدون ان الفرسان المسيحيين تأثروا بسماحة المسلمين .

يقول ارنولد : وان زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٨١ .

الزمن . وهي ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزا واضحا جليا .

ثم يقول : ويظهر ان اخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد احدثت في اذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا حتي ان نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم اليه انهم هجروا ديانتهم المسيحية . وهجروا قومهم وانضموا الى المسلمين .

وتتحدث المراجع المسيحية عن اسلام فارس المعبد الانجليزي روبرت اوف سانت اليانس في سنة ١١٨٥ وتزوجه من احدى حفيدات صلاح الدين . كما تشير الى تحول الفرسان واسلامهم بمحض ارادتهم بعد ان اوقع صلاح الدين بالصليبيين هزيمة منكرة في حطين سنة ١١٨٧م .

ومعني هذا ان الحروب الصليبية اتاحت للحركة الاسلامية فرصة الانتشار . والنمو في اوساط جديدة ما كانت تقبل على الدعوة بهذه الصورة لو لم تتح لها هذه الظروف .

حركة التتار :

المغول أو التتار قبائل في شمال الصين كانت تطوف بالارض المجاورة بحثا وراء المراعي الخصبة . وكانوا وثنيين[١] ثم تحسنت

---

(١) كانت دياناتهم تسمى الشامانية . فيعترفون باله قوي قادر . لا يصلون له ويعدون طائفة من الالهة المنحطة . وبخاصة تلك الاهة الشريرة التي كانوا يتقدمون اليها بالقرابين والضحايا . لاعتقادهم فيها القدرة على الاذى . كما كانوا يعبدون ارواح اجدادهم القدامى .

احوالهم على يد رئيسهم جنكيز خان الذي بسط سلطانه على القبائل المجاورة ووضع باسمه كتابا فيه تشريعات تنظم معاملاتهم .

وبدأ يتعرف على اطراف الدولة الاسلامية عن طريق افراد من كبار المسلمين في قبيلته يبعثهم رسلا الى الممالك المجاورة ، وكان يسودها الود اول الامر ، ثم انتهت بحروب متتابعة بسبب قتل والي بخارى لرسل جنكيز خان حتى قضت الحروب على الدولة الخوارزمية ، واصبحوا على ابواب بغداد ، ورفض الخليفة العباسي التسليم ، وكان وزيره ابن العلقمي الشيعي صنيعة للتتار . فزحفوا على بغداد ودمروها ، واحرقوا مكتباتها وقتلوا كل من تصدى لهم من العلماء والادباء ، ثم انطلقوا الى الشام ودمشق . يدمرون الاخضر واليابس ، واصبحوا على ابواب مصر ، وفي عين جالوت تصدى لهم سيف الدين قطز على رأس جيش من مصر بدد شملهم وفرق جمعهم والحق بهم هزيمة قاضية لم يروا مثلها ، وطاردهم حتى دمشق .

ملاحظات على حركة التتار وغزوهم للدولة الاسلامية :

ان المتتبع لحركة التتار يجد انها ليست حركة دعوة لفكر معين يريد ان ينشره القوم ، لان اكثرهم وثنيون ، والقليل منهم مسلمون ، كما انها ليست حركة من اجل التوسع وبسط النفوذ واستغلال الثروات ، وانما هي مجرد شهوة حركت زعامات هذه القبائل بما فيهم من طباع بدوية ، وشراسة رعوية ودليل هذا انهم تحركوا للحرب ضد الدولة الخوارزمية عندما قتل رسل جنكيز

خان . وانهم في حربهم كانوا يمعنون في القتل واراقة الدماء وتدمير العمران . واحراق الكتب .

اثر حركة المغول في الدعوة الاسلامية :

دمرت حركة التتار حضارة الاسلام . وأوقفت حركة الدعوة بما بثته من الرعب . وما تورطت فيه من قتل العلماء والمفكرين . يقول ابن الاثير عند كلامه عن حوادث سنة ٦١٧هـ : لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة . استعظاما لها . كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا . واؤخر اخرى . فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك . فياليت امي لم تلدني . وياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . الى ان حدثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وانا متوقف ، ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدي نفعا . فنقول : هذا الذي يتضمن ذكر الحادثة العظمى . والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والايام عن مثلها . عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا . فان التواريخ لم تتضمن ما يقابلها . ولا ما يدانيها . ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا . فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة[1] .

قد نرى في اسلوب ابن الاثير انه يتحدث بعاطفته ، وان كلماته مصطبغة بشعوره ، لكن عذره انه معاصر للاحداث الدامية ، وان اثر وقعها على نفس المسلم كانت عنيفة وقاسية . ولا أدل على هذا من اننا نرى مؤرخا اوربيا معاصرا يتحدث عن غزو التتار للعالم الاسلامي فيتحدث في القرن العشرين بما تحدث به ابن الاثير منذ ثمانية قرون . يقول توماس ارنولد : لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا اشد هولا من غزو المغول ، فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قمم الجبال واكتسحت في طريقها المراكز الاسلامية ، واتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية . واطلالا بالية وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء وبعد ان تحول جيش المغول عن مدينة هراة خرج اربعون من اهليها من مخبئهم ، فرارا من الموت وكان هؤلاء التعسون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة الف ، وقفوا مهطعين مقنعي رؤوسهم . يبكون اطلال مدينتهم ، وقد اخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ . وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم ، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم ، وجعلوا مدينتهم رمادا

(١) كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٦١٧هـ .

تذروه الرياح . وكذلك كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ . وغيرهما من امهات مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل فخر الحضارة الاسلامية . وموطن الاولياء . وكعبة العلوم كما كان ذلك ايضا . مصير بغداد التي ظلت قرونا عدة حاضرة الدولة العباسية[1] .

هذه المحنة القاسية التي وصف مداها مؤرخ اسلامي قديم ومؤرخ اوربي حديث هل كانت تعني القضاء تماما على حركة الدعوة ؟ والحقيقة انها اوقفت الدعوة تماما على اساس انها منهج للدولة في نشر الدعوة بعد أن كانت قد توقفت أو كادت تتوقف قبل ذلك بفترة غير يسيرة . لكن طبيعة الاسلام بما تميزت به من فطرية . وارضاء لمطالب العقل والجسم والحياة وبما يلزم به الاسلام المخلصين من ابنائه من عقيدة الدعوة يجعل هذه الدعوة تتحرك فرديا في أحلك الظلمات . وفي اصعب المواقف . وتصل الى درجة من التأثير . وتحقق قدرا كبيرا من الكسب اكثر مما تصل اليه جيوش الدعوة التي تحركها الدولة . وقد اشرنا الى شيء من ذلك في حديثنا عمن اسلموا من جنود الحملات الصليبية . وسنرى هنا ان الدعوة الاسلامية نجحت الى حد كبير في احتواء كثير من هذه القبائل التترية بعد ان انصاع قادتهم وزعماؤهم لها .

فكيف وصل الاسلام الى قلوب المغول ؟

اصبحت قبائل المغول بعد انتصاراتها . وهدوء الحركة العسكرية مسرحا لتنافس عنيف بين الاسلام . والمسيحية .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٩٠

والبوذية ، كل منها يريد ان يحتوي هؤلاء الفاتحين الغلاظ . وقد حقق ارنولد هذه القضية فقال : وقد اتفق ان كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على اثر فتوحاتهم تضم بين افرادها عددا كبيرا من البوذيين والمسيحيين والمسلمين ، وقد تنافس اتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين الى دينهم ، ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية ، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ، ظهروا بمظهر التسامح مع اهالي الديانات الاخرى ، فاعفوا قسيسيها ودعاتها من الضرائب . كما منحوهم الحرية التامة في اقامة شعائرهم الدينية ، فكان قساوسة البوذيين ، يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين في حضرة جنكيز خان (١٢٠٦ – ١٢٢٧م) كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية في بلاد مانجو خان (١٢٤٨ – ١٢٥٧) وقوبيلاي[1] (١٢٥٧ – ١٢٩٤) .

وكان الصراع بين الديانات الثلاث على استحواذ افراد التتار متوقفا على جهود الافراد وحكمتهم ومدى براعتهم في ابراز الدين في صورة سلوكية تأخذ بالمشاعر والالباب ، وفي اول الامر تمكنت البوذية من بسط سلطانها على الجزء الشرقي من مملكة المغول . وكان للمسيحية نفوذ قليل في الشرق ، واتسع نسبيا في الغرب ، لكن مسلك البوذيين والمسيحيين مع المسلمين ، وعنتهم واضطهادهم لهم في مقابل الصورة المشرقة التي نهر بها سلوك المسلمين في

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٩١ .

الدعوة حولت جماهير التتار اخيرا الى الاسلام . هذا كله بالاضافة الى ما رآه التتار من اخلاق المسلمين في معركة عين جالوت .

يقول المقريزي : وقد اساء الى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه اخوانهم في الدين في دمشق وفي غيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي اقامها بين ظهرانيهم مغول فارس الذين اولوهم عطفهم ورعايتهم[1] .

بل ان ارنولد نفسه يؤكد ما كان من المسيحيين والبوذيين ايضا من فظائع ارتكبها هؤلاء واولئك في حق المسلمين بالشام . ثم يروي حكاية مسيحي اسلم في سمرقند واستعدوا عليه المغول . ويصف اصرار هذا الشاب وموقفه بالرغم من العقاب الشديد فيقول : ولما ظل الشاب ثابتا على الدين الحق . ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة امر المغولي اللعين بانزال العقاب بهذا الشاب امام الملأ . وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين . اجزل الله له المثوبة والاجر[2] .

هذا العنف البالغ الذي حل بالمسلمين . بتدبير من المسيحيين من ناحية . والبوذيين من ناحية اخرى كان له رد فعل واسع المدى في تحول التتار الى الاسلام شرقا وغربا .

---

(١) مقريزي ـ المجلد الاول ـ القسم الاول

(٢) تومس ارنولد نقلا عن الجوزجاني من كتابه منهاج سراج (بالفارسية) صفحة كلكت .

ويروي صاحب الدعوة الى الاسلام عن ابي الغازي بهادور خان . وعن الجوزجاني صورة لتحرك المغول الى الاسلام فيقول : وكان بركة خان (١٢٥٦ – ١٢٦٧م) اول من اسلم من امراء المغول . وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في الروسيا . وقد قيل في سبب اسلامه انه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام فشرحاها له شرحا مقنعا . انتهى به الى اعتناق الاسلام والاخلاص له . وقد كاشف اصغر اخوته اول الامر عن تغييره لدينه وحبب اليه ان يحذو حذوه . ثم اعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين ولما . شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على احد علماء مدينة خوقند . ويقال ان كل جيش بركة خان كان مسلما . كما يذكر بعض الثقات انه قد جرت العادة بان يحمل كل فرس في جيشه سجادة الصلاة حتى اذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم . كما لم يكن في جيشه شخص يتعاطى المسكرات . وكانت حاشيته الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث ، والفقهاء ، وعلم الكلام ، وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين . كما كان معظم مجالسه ، ومناظراته مع العلماء وكانت المناظرات الدينية منها تشغل اكثر مجالسه . وكان سنيا مغاليا شديد التمسك بدينه[1] .

ويذكر المقريزي ان هناك صلات ود وصداقة بين بيبرس سلطان المماليك في مصر . وبركة خان . وقد دخل في الاسلام

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٩٧ .

بقدع بيبرس له . ويؤكد المؤرخون هذه الفترة ن سلام (تغلق تيمور خان) كان على يد رجل تحر من اهل الورع والتقوى بسمرقند . ولهم قصة مثيرة يروون في ذلك . ثم عرض الاسلام على امراء دولته فاستجابوا له[1] .

٣ ـ محنة في مغرب العالم الاسلامي .

دخل العرب اسبانيا يحملون دعوة الاسلام سنة ٧١١م فعلموهم الدين الحق . واخرجوهم من الظلام الى النور . ومن ذل الاستعباد للبشر الى عزة العبودية لله . وتخلص الناس من البغي والظلم . وقامت على كواهل الذين حررهم الاسلام اعظم حضارة جعلت هذه البلاد مقصد الطلاب . وموئل العلماء والمفكرين .

وفي سنة ١٥٠٢م اعلن فردناند وايزابلا مرسوما يقضي بالغاء شعائر الدين الاسلامي من انحاء البلاد . واضطهد المسلمون . وطوردوا بعد ان سقطت المدن الاسلامية تباعا في يد نصارى الاسبان . واقيمت محاكم التفتيش بما تحمل من شنع وسائل التعذيب امعانا في اضطهاد المسلمين .

وهذا الذي حدث في مغرب العالم الاسلامي لم يحدث مثله للمسلمين في المشرق لان الغزوات الصليبية . وهجمات التتار . وان صحبها تخريب ودماء الا انها في النهاية كانت في صالح الدعوة الاسلامية التي احتوت كثيرا من جيوش الصليبيين .

(١) المقريزي (جـ ١)

وغزت قلوب التتار .

وكانت مصر في عهد المماليك ملاذا للعلماء والمفكرين الذين أووا اليها من الشرق فرارا من التتار . ومن الغرب فرارا من التعصب الصليبي ، ويحتفي بهم المماليك ، وييسرون لهم وسائل العلم والدرس والبحث [١] .

وقد قدم المماليك للاسلام اجل خدمة واعظمها في احتواء العلماء والترحيب بهم . ويرجع هذا إلى النشأة الاسلامية القوية التي شبوا عليها على يد الخلفاء الايوبيين ، وهم وان دخلوا الحياة من باب الرق ، أو قل الاسترقاق الظالم لكن الامر انتهى بهم الى ان اصبحوا حماة للاسلام في ظروف صعبة ، وان لم ينجحوا في تقديم مجتمع اسلامي مستنير ، ومستقيم تسوده الطمأنينة . ويغشاه الامن . وذلك لما استقر في نفوسهم من صراع على السلطة لم يخفف منه تعصبهم للاسلام ، ويبدو من خلال تربيتهم الخاصة انهم تصوروا العمل الاسلامي في التصدي لعدوان الكفار من التتار والصليبيين اكثر منه مجتمع آمن مستقر ، بعيد عن غلبة الاهواء والشهوات .

استمرار الجهود الشخصية في نشر الدعوة

من الممكن ان يقال ان حركة الدعوة الاسلامية قد توقفت أو كادت تتوقف في منتصف الدولة العباسية ، لما احاط بالدولة من

---

(١) عرف هذا العصر بانه عصر الموسوعات العلمية . واعادة بناء الثقافة الاسلامية بعد أن دمرها المغول في بغداد .

ظروف صعبة فصلناها فيما مضي . وهذا القول ان صح يصدق على تحرك القيادة في دولة الاسلام نحو الدعوة خرج بلاده . أمّا في داخل البلاد الاسلامية فالدعوة قائمة مستمرة تتصدى للانحراف . وترشد الضال . وتأمر بالمعروف وتنهي عن امنكر .

واما دعوة غير المسلمين في خارج البلاد الاسلامية فاستمرت عن طريق آخر هو هؤلاء الغُيُر من المسلمين الذين عرفوا واجبهم الاسلامي في الدعوة . وتيسرت لهم اسباب الحركة والانتقال يبتغون منافع لهم . ومع حرصهم على السلوك الاسلامي كان أمر الدعوة في حسبهم . ومنهم من كانوا من الخلفاء أوكبار القوم . أو من العلماء . أو التجار . أو عامة المسلمين . وقدموا امثلة رائعة في هذه الفترة . واحرزوا انتصارات كبيرة واتسعت الرقعة الاسلامية اتساعا عظيما في آسيا وافريقيا . ودخل الاسلام على ايديهم اكثر ممن دخلوا في عصور الدفع المسلح .

وتتبع هذه الحركة والتأريخ لها يحتاج الى جهد آخر نتناوله في الجزء الثاني من هذا البحث الذي نتحدث فيه عن الدعوة الاسلامية في العصور الوسيطة والحديثة .

لكني اذكر هنا امثلة يسيرة تشير الى استمرار الدعوة عن طريق هؤلاء الافراد برغم الظروف الصعبة التي عاشتها الدولة العباسية . والعواصف الباغية التي اجتاحتها في أيامها الاخيرة من الشرق ومن الغرب .

في بلاد النوبة :

يذكر المقريزي هذه القصة التي تعطي لونا من جهاد الافراد

في نشر الدعوة . والقصة فيها حوار بناء وأحداثها قد سجلها المؤرخ المسلم في القرن الخامس عشر . يقول ابن سليم انه رأى ذات مرة رجلا في مجلس نوبي عظيم الشأن . فسأله عن بلده . فقال مسافته الى النيل ثلاثة اهلة . وسأله عن دينه . فقال ربي وربك الله . ورب الملك . ورب الناس كلهم واحد . وهو كائن في السماء وحده . فاذا ابطأ عنهم المطر . أو اصابهم الوباء . أو وقعت بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضي حاجاتهم قبل ان ينزلوا . فلما اقر الرجل ان الله لم يرسل لهم قط رسولا فيهم . ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم . وما ايدوا به من معجزات فقال :

واذا كانوا قد فعلوا هذا فقد صدقوا وقد صدقتهم ان كانوا فعلوا[1] .

وفي الحبشة :

يذكر المقريزى ان احد الدعاة المسلمين في اول القرن الثالث عشر ويدعى ابا عبد الله محمد شق طريقه الى الحبشة داعيا الى الاسلام . فلما تمكن من تجميع مائتي الف شخص حوله اشتبك مع حاكم (امهرة) في حروب كثيرة توطدت فيها اركان الدعوة . واصبح لها قوى متعددة ظلت في صراع على امتداد القرون التالية مع ملوك المسيحيين المتعصبين[2] .

---

(١) المقريزي ـ الخطط (١ : ١٩٣) .

(٢) المرجع السابق (٢ : القسم الثاني ص ١٨٣) .

وفي السنغال :

وكانت هذه البلاد تعرف قديما باسم (صنهاجة) ويذكر صاحب تاريخ السودان ان اول ملك اسلم في صنهاجة كان يسمى (زاكسي) وهو الملك الخامس عشر في اسرته . وكان سلامه سنة (٤٠٠هـ - ١٠٠٩م) واصطلح على تسميته في لغة بلاده باسم (مسلم دام) ويدل هذا الاسم على انه اسلم بمحض ارادته لا عن طريق الارغام[1] .

ومن الطريف ان من صنهاجة ابن آجروم صاحب كتاب الاجرومية في تلخيص قواعد النحو العربي .

وفي النيجر :

يتحدث الكاتب نفسه عن اسلام (كنبرو) ملك (جني) . وتسمى (دينيه) وتقع على نهر النيجر الاعلى . وكان اسلام ملكها في القرن السادس الهجري وحذا حذوه سكان المدينة . وقال ان هذا الملك لما عزم على اعتناق الاسلام جمع كل العلماء في مملكته . وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالما ثم طلب منهم ان يدعوا الله لينصر مدينته . ومن بعدها هدم قصره وبني في مكانه مسجدا عظيما[2] .

وفي الفلبين :

دخل الاسلام الى الفلبين عن طريق الملايو على يد شخص

(١) تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي (ص ٣) . طبعة باريس ١٨٩٨م

(٢) بن بطوطه (جـ ٤) والمرجع السابق

يدعى (شريف كابو) جاء من جوهور واستقر مع عدد من اتباعه في (مندناو) وتزوج هناك ، وقالوا انه ابي ان ينزل على الشاطئ حتي يعده هؤلاء الذين قدموا لاستقباله باعتناق الاسلام . واستجابوا له . وتم الامر في غاية الهدوء والسكينة . وبعد ان وطدوا سلطانهم اتجهوا الى من جاورهم من القبائل[1] .

في الصين :

تشير الدلائل التي يؤكدها المؤرخون ان الاسلام دخل الصين في اول الامر مع التجار من الطريق البحري القديم .

وكانت هناك علاقات سياسية قائمة بين الدولة الاسلامية والصين بلغت حدا وثيقا .. من ذلك انه عندما توفي يزدجرد آخر ملوك آل ساسان من الفرس . استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على الفاتحين العرب واعتذر امبراطور الصين . نظرا لبعد المسافة وارسل الى الخليفة عثمان بن عفان سفيرا يدافع عن الامير الهارب . وفي الوقت نفسه يتعرف على مدى قوة الدولة الاسلامية واتساعها ، ويقال ان الخليفة ارسل مع السفير احد القواد العرب ليرافقه في عودته سنة ٦٥١م فاكرم الامبراطور اول سفير من المسلمين بعث اليه .

واستنجد احد اباطرة الصين الذي خلع من عرشه بالخليفة ابي جعفر المنصور فارسل له قوة اسلامية ادت المهمة ، وصرح لها بالاقامة والاستقرار . وخصص لهم اراضي ودورا مختلفة في مدن

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٣ .

الصين وتزوجوا من نساء البلاد . وكانوا نواة لهذه الحركة الاسلامية في هذه الاراضي الشاسعة[1] .

وفي الهند :

يتحدث صاحب كتاب الدعوة الى الاسلام عن (مولوى عبيد الله) وهو واحد من البراهمة الذين دخلوا في الاسلام وكان على جانب عظيم من الثقافة وكان له دور بارز في الدعوة . واسلم على يديه عدد كبير من اهل بلدته وله مؤلفات شتي في الجدل . وفي كتابه تحف الهند يذكر تجربته في الدخول للاسلام . وهي تجربة تكشف عن جانب من جوانب التحول . وبواعثه وخصائص الاسلام يقول : انا محمد عبيد الله بن منشي قطامل . ساكن بايال بولاية (بتباله) اعلن ان هذا العبد الفقير كان في طفولته . وفي اثناء حياة والده اسير عبادة الاصنام ولكن رحمة الله انتشلتني بيدها . وجذبتني الى الاسلام . من ذلك اني انتهيت الى معرفة مزية الاسلام ونقائض الهندوكية فرضيت بالاسلام دينا بقلبي وروحي . وعددت نفسي خادما لرسول الله ﷺ . وفي ذلك الوقت هدتني الفطنة التي هي هبة الله اليَّ انه من فرط الحماقة والغباوة ان يتبع المرء عادات اجداده اتباعا اعمى فيضل بها . والا يتأمل . ويبحث في مسائل الدين والعقيدة التي عليها تعتمد سعادتنا الابدية أو شقاوتنا . وبهذه الافكار اخذت في دراسة العقائد السائرة وبحثت كلا منها غير متحيز . ولا محاب . فعرفت الهندوكية

---

(١) مصدر سابق (ص ٢٥١ ٢٥٢) حتى نقل سوره عن المؤرخين صينيين مثل (دنون) وغيره

معرفة تامة وتباحثت مع الندبت المتعلمين . وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحي . وقرأت كتب الاسلام . وتباحثت مع علماء المسلمين ووجدت في جميعها اخطاء وأباطيل الا الاسلام الذي تحلت في مزيته جلاء بين وزعيم هذا الدين النبي محمد من المزايا المعنوية ما يعجز اللسان عن وصفه » .

ثم يواصل حديثه عن الاسلام في الهند فيقول ان الدعوة الاسلامية لم تأخذ الشكل العسكري الا في عهد محمود الغزنوي . وتيمور لنك . وكان لها بعض تجاوزات يبرأ منها الاسلام . لكنها من قبل هذين الرجلين ومن بعدهما حملها افراد من التجار . أو الذين وقفوا انفسهم للدعوة وكانوا من ذوي اليسار . أو من الرحالة . أو من ابناء الهند الذين اسلموا مثل عبيد الله مولوي الذي تحدثنا عنه[1] .

في سومطرة :

تذكر الروايات ان اول دعوة الى الاسلام في سومطرة قام بها رجل عربي يدعى : عبد الله عارف قالوا انه زار الجزيرة في منتصف القرن الثاني عشر . وهذا الخبر وان كان غير موثوق به عند بعض الباحثين لكن له ظل من الحقيقة . اذ يشير الى وجود نشاط في الدعوة الى الاسلام في هذه الفترة وتذكر اخبار مؤرخي الملايو ان مؤسس اول اسرة اسلامية هو جيهان شاه الذي اعتلى عرش (اتجيه) شمال غرب سومطرة ونقب بلقب (سري دوك سلطان)

---

(١) الدعوة الى الاسلام (ص ٢٤٣ ٢٤٤) .

وهو خليط من العربية والسنسكريتية وانه غريب عن هذه البلاد . ووفد الى هذه السواحل ليدعو الى عقيدة النبي محمد ﷺ . وادخل كثيرين في الاسلام . وتزوج امرأة من اهالي البلاد ورحبوا به ملكاً »

هذه امثلة موجزة ومتنوعة تكشف عما أثمرته جهود الافراد في مجال الدعوة الاسلامية في الفترة السابقة .

وهي تجارب من واقع العمل الاسلامي يتجسد فيها منهج الدعوة في الاسلام . وحتمية نجاحه . وان هؤلاء الافراد الذين فتحوا للاسلام اراضي شاسعة . وادخلوا في حوزته ملايين البشر ما كان معهم سوى حكمة القول . وحسن الجدل . وعمق الموعظة كما تبطل مما لا يدع مجالا للشك ـ فرية اعداء الاسلام بان السيف هو منهج المسلمين في الدعوة .

خـــاتمة

الدعوة ودرس القدوة

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾

وقد مر [illegible] معرفة [illegible]
[illegible] في هذه [illegible]

لقد أصبحت الدعوة بالقدوة المثلى والقدوة وحدها من الأساس الفعال في عملية التغيير، ولكي يصل الداعية إلى [illegible] الناس أن يقتنعوا به لا بد له أن يقدم القدوة مع الدعوة.

لقد غير النبي عليه الصلاة والسلام مسيرة الحياة الانسانية عندما قدم هذه القدوة. **«لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا»** (الاحزاب : ٢١).

وكان الانبياء جميعا قدوة لرسول الله ﷺ [illegible] الكريم **«اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»** (الانعام : ٩٠)

وكان ابراهيم عليه السلام ومن معه و[illegible] بدين الله قدوة للناس جميعا **«قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده»** (الممتحنة : ٤) .

وقد قدم اصحاب رسول الله ﷺ والراشدون من خلفائه

امثل قدوة .وكانوا بما يقدمونه من مثل يدفعون المفرطين الى الالتزام ، ويردون العصاة الى الطاعة كما يزداد الراشدون حرصا على طريق الرشاد .

وهؤلاء الافراد الذين حولوا شعوبا باسرها الى الاسلام ، وفعلوا في غزو القلوب ما لا تفعله الجيوش الجرارة . ماذا فعلوا ؟ وماذا كان سلاحهم ؟ وما الوجبة الاسلامية التي اغرت جماهير البشر بان يطلبوا ابدا مائدته الشهية ؟ .

جاءوا بالخلق الكريم .

وقدموا البر والود والرحمة .

قدم الحاكم منهم العدالة .

وقدم التاجر الصدق والامانة .

ورأت الشعوب منهم مثلا لم ترها الا في الخيال .

ووجدت الدين الذي يحملونه يحل كل مشكلات الانسان .

ووجدت الاسلام واضحا تماما في ملامح الحياة التي يحياها هؤلاء الدعاة .

وتاجر امين صادق في وقت غربت فيه القيم يغري الناس بمزيد من التساؤل عنه ، ويصبح مورد ثقة في كل شيء . فابو عبد الله محمد في الحبشة ، وابن سليم في النوبة ، وشريف كابو في الفلبين ، وعبيد الله مولوي في الهند .. كانوا امثلة طيبة رأى القوم الاسلام بخصائصه العظيمة فيهم فاسلموا . وهذا هو سر القدوة .

ان الدعوة اذن في ظل النشاط الفردي حققت الكثير . وكانت القدوة وراء هذا النجاح العظيم .

هذه هي لدعوة في الاسلام . عقيدة رسخة في القسب . تتحول الى سىوك يومي لنمسلم . يقوم بعمىية التصدي والتوجيه والتقويم . وهي منهج فريد يدرس البيئة والظروف . وماذا يقال ؟ ومتي يقال ؟ وكيف يقال ؟ .

والتجربة التاريخية حـفلة بالكثير من ايجابيات الدعوة . وانتشار الاسلام بهذه الصورة في المشرق والمغارب دليل نجاح . ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به اولها . وصلح الدعاة السابقون . واصلحوا بالقدوة . ويمكن للدعاة المعاصرين ان يغيروا واقع مجتمعهم المعاصر . ويعيدوا له ملامحه الاسلامية بان يجعلوا مثل الاسلام في حياتهم الخاصة تجسيدا حيا يرى ويسمع .

بقي امر آخر هو الدعوة في العصر الوسيط والمعصر . وفي هذه الفترة تجارب فريدة . واعلام هداية . ودعة تأثروا اعمق الاثر . وابلغه كما شهدت ضعفا وتخاذلا . وصراع شرسا مع اعداء الاسلام والمعركة ــ في ميدان الدعوة ــ لا تزال قئمة معهم . وهذه قضية بالغة الخطورة . تحتاج الى دراسة شاملة مستفيضة للدعوة منذ القرن السابع الهجري حتي القرن الحالي .

ارجو ان اكون بهذا قد قدمت شيئا نافعا على طريق الدعوة تضعه الاجيال الحاضرة امامها مشعل هداية من خبرات الاجيال الماضية . لعلي اكون قد اوفيت على الغية أو دانيت . وحسبي اني ابلغت نفسي العذر ومن ألوت . ومبلغ نفس عذرها مثل منجح .

وما توفيقي الا بالله عىيه توكلت واليه انيب .

ربنا عليك توكلنا واليك انبنا . واليك المصير ..

اهم المراجع والمصادر

(١) القرآن الكريم .

(٢) كتب التفسير (القرطبي ، الكشاف ، ابوالسعود ، المنار) .

(٣) كتب السنة .

(٤) تاريخ الامم والملوك للطبري .

(٥) سيرة ابن هشام .

(٦) الخراج - لابي يوسف .

(٧) الخطط للمقريزي .

(٨) رحلة ابن بطوطة .

(٩) تاريخ السودان لعبدالرحمن بن عبدالله السعدي ط/باريس .

(١٠) الدعوة الى الاسلام - توماس ارنولد .

(١١) الفهرست لابن النديم - نشرة فلوجل ١٨٧١ .

(١٢) فتوح الشام - للازدي .

(١٣) الكامل في التاريخ - لابن الاثير .

(١٤) مروج الذهب للمسعودي .

(١٥) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابن خلكان .

الفهـــرس

الفصل الثالث ١٤١

الفصل الرابع ١٦١

مَطبَعَة رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة